المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة الملك سعود
كلية التربية
قسم الدراسات الإسلامية

جامعة الملك سعود
King Saud University

بحوث

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

The International Conference on Mercy in Islam

الجزء الرابع

نقد المفاهيم الخلاصيَّة النَّصرانيّة من خلال حقائق الرحمة في الإسلام

إعداد:
د. محمد بودبان
أستاذ محاضر في مقارنة الأديان
عضو مجلس إدارة الجامعة
ومستشار سابق لدى نائب مدير الجامعة
جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة– الجزائر

مقدمة

إنَّ الحمد للّه نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا؛ من يهده اللّه فلا مضلَّ له؛ ومن يُضلل فلا هـاديَ له؛ وأشهد أن لا إله إلاَّ اللّه وحده لا شريك له؛ وأشهد أنّ محمَّدًا عبده ورسوله، وحبيبُه من خلقه وصفيُّه، اللَّهُمَّ صلِّ عليه وسلِّم، زد وبارك، عليه وعلى آله وصحبه الكرام؛ أمّا بعد: فيتناول هذا البحث مسائل: العمل والجـزاء والخـلاص لدى النّصارى؛ والتي وإن تعلَّقت بالجانب العقدي أساسًا، إلاَّ أنَّها من جانبٍ آخرَ هي أساسٌ متعلِّق بالفروع التَّشريعيّة النَّصرانيَّة؛ حيثُ يعمدون إلى بناء هيكلٍ معرفيٍّ مكوَّنٍ من مجموعةٍ من المفاهيم، ويحاولون الربط فيما بينها بشكلٍ يريدونه أن يكون منطقيًّا؛ إنَّه ما يسمَّى ويدعى بـ: «التدبير الخلاصي».

وإنّ النَّصارى يوظِّفون مفاهيم هذا «التدبير الخلاصي» في شرح دينهم، وفي دعوة الآخرين إليه؛ فقلّما تكون دعوةٌ تنصيريَّةٌ من دون التركيز عليه؛ ومن أهمَّ مرتكزاتهم في ذلك الشرح أمران: «المحبَّة» و«الرحمة» وهذه الأخيرة هي من تجلِّيات الأولى. وهم في سياقات كلامهم، يحاولون أن يعقدوا المقارنات مع بقيَّة الأديان - وإن لم يشيروا إليها أحيانًا- ومع

الإسلام خاصَّة؛ فيبيِّنون في كلامهم أنَّ مقتضيات الرحمة مثلًا هي التي جعلت المسيح يقدِّم نفسه فداءً للنَّاس على الصليب -بزعمهم- وهي التي تُظهر -بحسبهم- العناية الإلهية في أسمى صورها، حيث رحم الله عباده رحمةً ما بعدها رحمة بتشريعه لهم سبيلًا خلاصيَّة من طريق ابنه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. ومن هنا أتت أهميَّة الموضوع الذي اخترت البحث فيه.

حيث إنّ الاستثمار العاطفي الخاطئ للفكرة الدِّينيّة يُكسبها تغافلًا عن بحث صدق منطقها؛ كما إنّ من وسائل ترويج الفكرة الباطلة محاولة ربط أجزائها بشيءٍ ممَّا ظاهرُه المنطق؛ وإنّ الرحمة لها سلطانٌ لمفهومها في العقل والفكر والروح جميعًا؛ وهي مرتبطةٌ واقعيًّا بقدرات الإنسان، وغلبة سلطان الهوى واللَّذَّة عليه؛ وقلّة حيلتِهِ؛ بحيث إنَّ الإنسان يميل -بشِقوته- إلى السكون والدعة، والتحلُّل من التكاليف والمسؤوليّة؛ فيبحث عن نجاةٍ بلا عقاب، وعلى نعيمٍ وجزاءٍ بلا عملٍ، وعلى رضوانٍ بمعصيةٍ، وعلى تحلُّلٍ لا تعفُّف... إلخ؛ ومسألة: «التدبير الخلاصي» تستثمر في كلِّ ذلك.

الإشكالية :

يمكننا صياغة الإشكالية المراد حلُّها في التساؤل الآتي:

«من منطلق كون الإسلام شاهدًا ومهيمنًا على ما قبله: كيف يمكن لحقائق الرحمة في الإسلام أن تسهم في نقد المفاهيم الخلاصية النَّصرانيّة؟».

الأهداف.

تهدف هذه الدراسة إلى مجموعةٍ من الأغراض، أهمُّها الآتي:

- تجريد النَّصارى من أحد أهمِّ المفاهيم التي يستعملونها في سبيل تنصير النَّاس.
- بيان اتِّساق مفاهيم الرَّحمة في الإسلام؛ وقدرتها على تحدِّي المفاهيم الباطلة، مهما تفنَّن أهلها في إلباسها ثياب المنطق، أو حشدوا لها أدلَّةً.
- دعوة النصارى وغيرهم إلى دين الرَّحمة؛ وإلى السبيل الحقَّة للنجاة والخلاص الحقيقي، إلى دار السلام.

المنهج.

منهجي في هذه الورقة أن أصف المخطط الخلاصي الذي يزعمه النَّصارى، مع تدقيق مختلف عناصره ومحطّاته من الخطيئة الأولى إلى غاية نهاية الشيطان، مرورًا بالصلب - بقولهم- واصفًا ما يسوقونه من أدلَّةٍ في ذلك، مجلِّيًا ما يحاولون إظهاره في قالب المنطق؛ ثمَّ أبيِّن ما يعتبرونه قمّة الرحمة الربَّانيَّة في هذا المخطط؛ لأكرَّ عليه بالتفنيد والنقد لمختلف مِفصليَّاته، مستعينًا بالمفاهيم الحقَّة للرحمة في الإسلام والتي استوعَبَت جميع حياة النَّاس من آدم عليه السلام، وإلى خلود أهل الدارين؛ بحيث تفسِّر كلَّ شيءٍ، بما يورث اطمئنانًا: روحًا وجسدًا وعقلًا.

خطَّة البحث:

مقدِّمة

المبحث الأوَّل: ضبط المفاهيم الخلاصيّة في النَّصرانيَّة.

المطلب الأوّل: المكوِّنات العقديَّة للتدبير الخلاصي في النَّصرانيَّة.

المطلب الثاني: صياغة النَّصارى لمراحل التدبير الخلاصي.

المبحث الثاني: مكانة الرحمة من المخطط الخلاصي النَّصراني.

المطلب الأوّل: مفهوم الرَّحمة عند النَّصارى.

المطلب الثاني: علاقة الرحمة بمكوِّنات التدبير الخلاصي عند النّصارى.

المبحث الثالث: النقد الإسلامي للخلاص النَّصراني من خلال الرحمة.

المطلب الأوَّل: بيان معالم الرحمة الإلهيَّة في الإسلام، وتناسق معانيها المبثوثة في الشريعة.

المطلب الثاني: بيان اضطراب التبرير بالرحمة في كامل محطّات التدبير الخلاصي النّصراني.

خاتمة.

المبحث الأوَّل
ضبط المفاهيم الخلاصيّة في النَّصرانيَّة

لا يمكن للباحث أن ينطلق رأسًا إلى إطلاق الأحكام واستصدارها، من دون أن تكون له أرضيَّةٌ صُلبة من تدقيق المفاهيم؛ وخاصةً إذا تعلّق الأمر بفكرةٍ يعتقدها خاطئةً. ويزداد الأمر حرجًا، حين يتعلَّق بأمور المخالف في الدِّين؛ حينها تحتاج المسائل إلى مزيد تثبُّتٍ وضبطٍ لها. وذلك حتَّى تكون الردود قويَّةً، سديدةً أو قريبةً إلى السداد؛ وتكون نتيجتها الهدايةُ الحقَّة إلى دين الحق؛ وإلاَّ قد ترتدُّ على صاحبها وعلى الإسلام من طريق التبع في أذهان النَّاس.

ولذلك سنحاول ههنا أن نتبيَّن المفاهيم الخلاصيَّة النَّصرانيَّة؛ وندع ألسنة أهلها نفسها تشرحه؛ ومن تواليف أهل الملَّة لديهم؛ من دون تجنٍّ، أو كسرٍ عليهم؛ أو تقويلهم ما لا يقولون به؛ ليأتي الردُّ والنقد بإذن الله تعالى بعد ذلك متوافقًا مع الفهوم التي رسموا خطوطها هم أنفسهم.

المطلب الأوَّل
المكوِّنات العقديَّة للتدبير الخلاصي في النَّصرانيَّة

الخلاص في حقيقة أمره مفهومٌ عقديٌّ، وُجد في الفكر الدِّيني الإنساني

منذ القديم؛ لأنَّه مطلبٌ تنشده كلُّ نفس: أن تحيا سعيدةً أبديًّا، وتتخلَّص من الآلام، ومن منغِّصات الحياة الدنيا. ولكن الأنفس قد تدرك سبيل تحقيق ذلك وقد تَضِلُّ؛ ولذلك جاء هدي الله تعالى النَّاسَ إلى كيفيَّة تحقيق ذلك من خلال ما أخبرهم به من طريق أنبيائه ورسله؛ وكانت البداية بأبي البشرية، نبيِّ الله آدم، حيث قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨] في مقابل هلاك الأنفس التي لا تقبل الهداية: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٣٩].

وفي الإسلام بيَّن الله تعالى -من خلال كلامه، ومن خلال إرسال الأنبياء والرسل- البدايةَ والنهايةَ؛ البدايةُ: من طينٍ(١)، والنِّهاية: يؤتى بالموت كهيئة كبش فيجعل بين الجنَّة والنَّار فيذبح؛ وينادى على أهل الجنَّة وعلى أهل النَّار نعيم ولا موت أبدًا، وعذاب بلا موت أبدًا(٢)؛ وبين البداية والنِّهاية ابتلاءٌ للنَّاس؛ فمن يعمل مثقال ذرَّةٍ خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرَّةٍ شرًّا يره.

والابتلاءُ لـمّا كانت غايتُه الجنَّة أو النَّار، حُفَّت الجنَّةُ بالمكاره، وحفت النَّار بالشهوات؛ فيغالب المرء نفسَهُ والهوى والشَّيطانَ فينجو؛ أو توبقه تلك الجنود إن أسلم نفسه لها. ومن رحمة الله بعباده أن جعل لهم سبلًا تتنزَّل من خلالها رحمته وهدايته: أنبياؤهُ ورسلُه، وكتبه وشرائعه وآياته فيها، وفي أنفسهم وفي الآفاق، وتأييده لهم بما شاء من جنوده؛

(١) كقول الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥] ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر:٦٧-٦٨]

(٢) فعن أبي سعيد الخُدْريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتى بالموت كهيئة كبش أملحَ؛ فينادي منادٍ: يا أهل الجنَّة، فيشْرئبُّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموتُ، وكلُّهم قد رآه، ثمَّ يُنادي: يا أهل النَّار، فيشرئبُّون وينظرون؛ فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموتُ؛ وكلُّهم قد رآه، فيُذبح ثمَّ يقول: يا أهل الجنَّة خلودٌ فلا موتَ؛ ويا أهل النَّار، خلودٌ فلا موتَ». ثم قرأ: «وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ». البخاري: التفسير، باب قوله: وأنذرهم يوم الحسرة، ح٤٧٣٠، ص٩٩٠.

ومضاعفة الحسنات إلى أضعاف كثيرةٍ؛ ومحوُه ومغفرته جبال الخطايا وبحورَها، بل وتبديلَها حسناتٍ؛ وتثبيت من اختار حزبَه في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة... إلخ. ومن البداية إلى النهاية كلُّ شيءٍ بقدرٍ وأجلٍ مسمًّى؛ وعلم أحاط بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ قد أحصاها الكتاب، بحكمةٍ وعدلٍ وخبرةٍ وبكلِّ صفات الله تعالى التي تظهر في قيُّوميَّته على خلقه.

أمّا إذا انتقلنا إلى الجانب النَّصرانيِّ فإنَّنا نجد عقائد أساسيَّةً لهم، ارتبطت ببعض محطَّات البداية والنِّهاية وما بينهما؛ وهي محطّاتٌ وردت مسائلها في القرآن الكريم، تتَّفق في بعض الخطوط - من حيث ما لم يحرَّف- وتفترق في قيمتها وما يترتَّب عليها من هدًى أو ضلالة، بما نالت منه أيدي التحريف، وألسنتُه.

وفي هذا المطلب سنحدِّد فقط هذه المحطَّات التي تُشكِّل مفاهيم وعقائد؛ ثمّ في المطلب الموالي سننظر كيف يَنظم النَّصارى نسيجها لتكوين جوهر التحريف الدِّيني الذي زلُّوا به. فالتَّدبير الخلاصي الذي هو الإنقاذ الإلهيُّ الشامل(١)؛ والذي يقصدون به بوجه عام "القصد الإلهي في ما يعود إلى خلاص البشر(٢) له مكوِّناتٌ عقيديّة تنتظم معًا، وهذه المكوِّنات هي كالآتي:

أ. الخطيئة الأصليَّة:

هي العقيدة التي تقول: إن سقوط آدم وحوَّاء قد لوّثهما، ولوَّث نسلهما إلى درجة أنَّ البشر لم -ولن- يستطيعوا أن يتوقَّفوا عن ارتكاب الخطايا(٣). ويأخذون حكاية ذلك من الكتاب المقدَّس الذي يؤمنون به؛ وإنَّ قصَّة أكل آدم

(١) مظهر الملوحي وآخرون: قراءة صوفيَّة لإنجيل يوحنَّا، (ط١)، دار الجيل: بيروت- لبنان، ٢٠٠٤م، ص ١٥٨.
(٢) صبحي حموي اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي، أعاد النظر فيه من النَّاحية المسكونيَّة الأب جان كوربون، (ط١)، دار المشرق: بيروت- لبنان، ١٩٩٤م، ص ١٤١.
(٣) جوناثان هيل: تاريخ الفكر المسيحي، ترجمة سليم اسكندر، مايكل رأفت، (ط١)، مكتبة دار الكلمة: القاهرة- مصر، ٢٠١٢م، ص٣٥٤.

من الشجرة التي نهي عنها، وإن كانت عند النَّصارى تتقاطع مع ما قصَّه اللّه تعالى علينا في القرآن العظيم، إلاَّ أنَّها قد ضمَّت شناعاتٍ عديدةً، لا يمكن للنصارى إخفاؤها؛ من ذلك[1] أنَّ الرب -عياذًا بالله- كذب على آدم وزوجه، وأخبرهما أنَّهما سيموتان إن أكلا منها، والحقيقة هي ما تكلَّمت به الحيَّة - إبليس الذي أخذ شكلها ليغويهما- التي أغرتهما بالأكل منها، وأنَّ هذه الشجرة هي شجرة معرفة الخير والشرِّ، وفعلًا لم يموتا؛ ولا ينفعهم أن يقولوا: "إنّه كتب عليهم الموت بالأكل منها وذريَّتِهما" وهو ما تبطله الشناعة الثانية، وهي قول الربِّ بزعمهم: «وقال الربُّ الإله: هوذا الإنسان قد صار كواحدٍ منَّا، عارفًا الخيرَ والشرَّ؛ والآن لعلَّه يمدُّ يده، ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا؛ ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الربُّ الإله من جنّة عدنٍ، ليعمل الأرضَ التي أُخِذَ منها. فطرد الإنسانَ؛ وأقام شرقي جنَّة عدنٍ الكَرُوبيم[2]، ولهيبَ سيفٍ متقلِّبٍ لحراسةِ طريق شجرة الحياة»[3]. وكأنَّما يصوِّرون ههنا ملكًا من ملوك الأرض، خائفًا على عرشه مذعورًا، مخفيًّا سبيل الحياة الأبديَّة. وكأنَّما الرب صار الأوَّلَ والآخرَ بأكله من تلك الشجرة -والعياذ بالله- وخشي أن يَشْرُكَهُ آدم فيها. إنَّ ههنا تصويرًا لانعدام الرحمة، وانعدام صفات الكمال الإلهي؛ وادِّعاء مصيبةٍ وكارثةٍ حلَّت بالبشريَّة، وليس الأمر كما وصفوا.

ب. توارث الخطيئة:

قلنا في العنصر السابق بأنّ سقوط آدم وحوَّاء قد لوّثهما، ولوَّث نسلهما إلى درجة أنَّ البشر لم -ولن- يستطيعوا أن يتوقَّفوا عن ارتكاب الخطايا[4]. بحسب ما يرى النَّصارى، فهم يؤسِّسون على ذلك أن الخطيئة الأصليَّة متوارثةٌ، لم تنقطع زمن آدم عليه السلام، وليس في نصوصهم ما يفيد - وإن في

(١) انظر القصَّة بتمامها وشناعاتها في سفر التكوين، الإصحاحين الثاني والثالث منه.

(١) تكوين ٣: ٢٢-٢٤.

(٢) تاريخ الفكر المسيحي، مرجع سابق، ص٣٥٤.

قليلٍ- أنَّ آدم وزوجه تابا، أو أنَّ الربَّ غفر خطأهما. ويهتمُّ النَّصارى ههنا أكثر ما يهتمُّون بتصوير ازدياد الإنسان في آثامه وخطاياه، ومبارزة ربِّه بالعصيان، والإفساد في الأرض؛ وهي أمورٌ على العموم حقيقةٌ؛ وإنّما المصيبة في تصوير تردُّد الرَّب وحيرته - تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- فيما يفعله مع هذا الإنسان الذي انحرف عن الخطِّ الذي خلقه عليه؛ ولننظر في هذه الفقرات من الكتاب المقدَّس، فهي كفيلةٌ ببيان شناعة ما يقولون: «ورأى الربُّ أنَّ شرَّ الإنسان قد كثُر في الأرض؛ وأنَّ كلَّ تصوُّرِ أفكار قلبه إنَّما هو شرِّيرٌ كلَّ يوم. فحزن الربُّ أنَّه عمل الإنسانَ في الأرض، وتأسَّف في قلبه. فقال الربُّ: أمحو عن وجه الأرض الإنسانَ الذي خلقتُه، الإنسانَ مع بهائم ودبَّابات، وطيور السماء، لأنِّي حزنت أنِّي عمِلتُهم. وأمّا نوحٌ فوجد نعمةً في عيني الربِّ»[1]. ويستمر والعياذ بالله هذا الاضطراب، والتردُّد، والحيرة في التصرُّف؛ فبعد طوفان نوح، ندم الربُّ -عياذًا بالله-أنَّه فعله، وعاهد نوحًا أن لا يعود إلى إهلاك الناس بالطوفان.

ولا ينفع أن يُقال كما قال أحدُهم: "وإن كان الله يعدل هكذا عن قصده، أمام مشهد الشقاء الذي تسبِّبه الخطيئة، فذلك راجعٌ إلى أنَّه يريد رجوع الخاطئ إليه وتوبته"[1]. فالله تعالى حقًّا تسبق رحمتُه غضبه، ولكنَّه لا يضطرب، لا يندم، ولا يبدو له ما لم يكن يعلم.

ج. دخول الموت:

في ظنِّي أنّ السبب الأهمَّ في إيراد الكلام عن دخول الموت جنبًا إلى جنبٍ مع كلامهم عن دخول الخطيئة إلى العالم؛ هو تصوير المقابلة بين ذلك وبين انتصار المسيح -بزعمهم- على الموت فوق الصليب، حين قام من بين الأموات؛ ليهب بعدها الحياة الأبديَّة لمن آمن به.

(١) لجنة من المعرِّبين بإشراف المطران أنطونيوس نجيب: معجم اللاَّهوت الكتابي (العنوان الأصلي: Vocabulaire de Theologie Biblique)، ط٦، دار المشرق: بيروت- لبنان، ٢٠٠٨م، ص٣٧٥.

وتصوير الموت ههنا، هو تصويرٌ للموت الحسِّي والمعنوي على السواء، ومدُّ جسورٍ فيما بينهما. والموت يربطونه بالخطيئة؛ كونه عقوبةً عادلةً لديهم عليها؛ ولذلك امتلأت شرائع العهد القديم بالعقوبات بالموت؛ حيث يرون أنَّ العهد القديم يقيم عقيدةً ثابتةً، تبرز المعنى الدِّيني لخبرةٍ جدُّ مرَّةٍ: " تطلب العدالةُ هلاك الشرِّير... والنَّفس التي تخطىء يجب أن تموت"[١]؛ وقد ورد في معجم اللاَّهوت الكتابي في كلِّ ذلك قولهم: «ولا يمكن أن يكون الموت خاليًا من المعنى؛ فهو يناقض بعنف رغبتنا في الحياة؛ ويَثْقُلُ علينا كقصاصٍ؛ ولهذا -وبطريقةٍ غريزيَّة- فإنَّنا نرى فيه جزاءً للخطيئة»[٢]. وهنا تمامًا يتساءلون، صارخين في أنفسهم: كيف الخلاص من الموت؟

د. سلطان الشَّيطان:

والكلام ههنا عن سلطان الشَّيطان حين يأتي في سياق الكلام عن التدبير الخلاصي يكون بالتوازي، وبالتركيز على شدَّة ضعف الإنسان، في مواجهة الذي كان سببًا في دخول الخطيئة والموت إلى العالم. ولفظة شيطان في العبرانية تدلُّ على مسعاه؛ فهي تعني الخصم والعدوَّ[٣].

ونهاية الشيطان تكون في آخر المخطَّط الخلاصي؛ حيث إنَّه سيقبض عليه ويقيّد بالسلسلة، ويطرح في الهاوية ويُختَم عليه، لكي لا يُضلَّ الأمم فيما بعد؛ وفي النّهاية يطرح في بحيرة النّار والكبريت؛ ويعذَّب نهارًا وليلًا إلى أبد الآبدين؛ بحسب ما ورد في سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي[٤].

(١) المرجع نفسه، ص٧٨٢.
(٢) المرجع نفسه، ص٧٨٢.
(٣) معجم الإيمان المسيحي، مرجع سابق، ص٢٩٠ وانظر Initiation Biblique; publiée sous la direction de A.Robert et A. Tricot, imprimeurs du Saint siege et la Sacrée congregation des rites: Paris, Tournai, Rome, p560 et aussi le Dictionnaire pratique des connaissances Religieuses , Publié sous la direction de J.BRICOT Librairie Letouzey et Ane , Paris , France 1925 (1/236)
(٤) نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاَّهوتيِّين؛ هيئة التَّحرير: بطرس عبدالملك، جون ألكسندر طمسن، إبراهيم مطر: قاموس الكتاب المقدّس، (ط١٣)، دار مكتبة العائلة: القاهرة

هـ. طريق الخلاص بالأنبياء والشريعة:

في هذه المحطَّة يتكلَّم النَّصارى عن الطريق الخلاصيّة التي أرادها الربُّ بإرسال الأنبياء وإنزال الشريعة -الشريعة الموسويّة تحديدًا-. واتِّباعُ الأنبياء والهدي الذي أنزل إليهم هو عين خلاص الإنسان وفلاحه؛ وإنّما النَّصارى يشغِّبون على هذه المعاني العظيمة، وينالون من نورها؛ حين يحاولون التقليل من شأن هذه الطريق الخلاصيَّة، بكونها غيرَ مجديةٍ؛ والحاملُ على ذلك هو أن تظهر طريق الخلاص بابن الله الوحيد -بزعمهم- واضحةً أخّاذةً بالألباب؛ فلننظر مثلا لوصف بعضهم ذلك بقولهم: "وفي مأساة العالم، لم تُفلح الشريعة لتصدَّ عوامل الموت العاملةِ فينا؛ بل اتَّخذت الخطيئةُ من الشريعة سبيلًا لغوايتنا وإماتتنا. قد أعطت الشريعة معرفة الخطيئة، بدون قوَّة التغلُّب عليها؛ وهكذا حكمت على الخاطئ صراحةً بالموت، فأصبحت قوَّةَ الخطيئة"[1]. ثمَّ أضافوا قائلين: "ولهذا فإنَّ خدمة هذه الشَّريعة التي كانت مقدَّسةً، وروحيَّةً في ذاتِها؛ والتي كانت رغم ذلك مجرّد شريعة حرفيَّةٍ عاجزةٍ عن منح قوَّة الرُّوح، لم تحقِّق بالفعل إلاَّ خدمةَ موتٍ؛ فبدون المسيح كانت البشريَّة غارقةً في ظلال الموت".[2] فإنَّ كل قوانين الشَّريعة آلت إلى تقييد الإنسان وتدميره، لعجزه عن العمل بها؛ ولكنَّ رحمة الله في سيِّدنا عيسى المسيح تعطيه حياةً روحيَّة طاهرةً، بعكس الشَّريعة التي أفضت به إلى حكم الموت[3].

إنَّ المشكلة أنَّ من لم يكن وسطًا، سيكون غاليًا، أو جافيًا؛ وهو ما وقع فيه النَّصارى، إنّهم نالوا من حكمة الله تعالى وعلمِه المحيط؛ لقد تحدَّثوا عن قيُّوميَّته على العالمين، وكأنّما هو يقوم بالتجريب كالبشر، فتفلح خططه

مصر، مطبعة الحرِّيَّة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٠م،ص٥٣٥.

(١) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٧٨٤.
(٢) المرجع نفسه، ص٧٨٤.
(٣) قراءة صوفيَّة لإنجيل يوحنَّا، مرجع سابق، ص ٨٩.

أو تفشل؛ والأدهى والأمرُّ ههنا هو أنّ محصِّلة التجربة بتخليص البشر بالشريعة والأنبياء كانت تجربةً فاشلةً؛ وذَهَلَ الربُّ - عياذًا به- عن الطريقة المثلى، وهي تخليص النَّاس بابنه الوحيد - بكفرهم- حقبًا متطاولة.

و. طريق الخلاص بابن الله وضعف الإنسان:

ويلخِّصُ لنا بولس(١) هذه الطريق الجديدة، بمقارنتها بالقديمة التي سبق تحجيمُها، وبيان عدم جدواها، بقوله: «اللّه بعد ما كلَّم الآباء بالأنبياء قديمًا؛ بأنواعٍ وطرقٍ كثيرة؛ كلَّمنا في هذه الأيَّام الأخيرة في ابنه»(٢).

وهنا في هذا المفهوم تصويرُ رجاء الإنسان الذي لم تزده الشريعة - في ظنِّهم - إلاّ رَهَقًا، حتَّى زادت من انتصار الموت وتغلغله، حيث تحكم على كثيرٍ من الخطايا بالموت؛ فصار الإنسان ينتظر جَبْرَ ضعفهِ بمن يأتي ويحمل عنه أثقاله وآلامه؛ ويفتح السبيل إلى تطلُّعاته وآماله.

هذا ما يصوِّرونه بعد ذلك في ما قام به يسوع في ظنِّهم؛ حيث فيما ساقه متَّى من بيان السلسلة الشاملة لسلالة المخلِّص -بزعمهم- اتَّضحت حسبهم خطّة اللّه البعيدة المدى لخلاص الجنس البشري... وقد أتمَّ اللّه مقاصده بسبب انتباهه إلى التفاصيل؛ إذ تيقَّن بإنجاز كلِّ خطوة، وإعداد كلِّ شخص ذي نصيب في سلالة المسيح(٣). ومرَّةً بعد مرَّةٍ يتكلَّم النَّصارى عن الربِّ كأنَّه بشرٌ عبقريٌّ، أو حكيم، أو ذكيّ، يفكِّر ويتأنّى ويجرِّب إلى أن يصل إلى نتيجة فاعلة؛ ولا يتكلَّمون عنه كَرَبٍّ ليس كمثله شيءٌ؛ قد أحاط علمًا بالأشياء قبل كونها.

(١) ولد في طرسوس قيليقلية في حوالي ١٠م؛ وقطع رأسه في رومة في حوالي ٦٧م؛ اسمه اليهوديُّ: شاول، واسمه اليوناني بولس. اضطهد المسيحيِّين الأوَّلين، لكنَّه اهتدى إلى المسيحيَّة، فأصبح الرسول المثالي؛ معجم الإيمان المسيحي، مرجع سابق، ص ١١٨.

(٢) عبرانيين ١:١-٢.

(٣) جون ماكسويل: الكتاب المقدّس: دراسات في القيادة، الترجمة العربيَّة المشتركة، (ط١)، جمعية الكتاب المقدّس:بيروت- لبنان، ٢٠٠٧م، ص ١١٥١.

ثمّ يستمر تزيين المفهوم، بإضفاء صورة الأبطال - من البشر- على الأقنوم الثاني من الثالوث النَّصراني، كقولهم: "حتَّى مجيء المسيح وفي غيبته، كان الموت سائدًا على العالم؛ ثمّ يأتي المسيح، وبموته ينتصر على الموت نفسه. منذ تلك اللَّحظة، تغيَّر معنى الموت بالنِّسبة للبشريَّة المتجدِّدة، التي تموت مع المسيح لتحيا معه إلى الأبد"(١). أو قولهم عنه كذلك أنّه: "لكي يحرِّرنا من سلطان الموت أراد أوَّلًا أن يتَّخذ طبيعتنا المعرَّضة للموت"(٢).

ز. الصلب والكفارة، والفداء:

هنَّ مفاهيم متقاربةٌ من حيث الغرض منها، إذ يحيلُ بعضها على بعض؛ حيث إنّ المسيح بقولهم صُلِب لأداء وظيفةِ خلاصيَّة فداءً وكفَّارةً؛ على الرُّغم من أنَّه في تصوِّرهم مبرَّءٌ من الخطايا؛ ولم يستوجب الموت على الصَّليب "فلقد قَبِل أن يتَّخذ موتُه صورةَ العقاب الذي تستوجبه الشَّريعة"(٣).

ثمَّ يواصلون فلسفة الأمر من نحو قولهم: "لقد كان موت المسيح... وإن بدا في الظاهر كعقاب للخطيئة؛ إلاَّ أنَّه كان في الحقيقة ذبيحةً تكفيريّةً... بموته فدى المسيح الشَّعب ... لا من أجل شعبه فقط، بل من أجل جميع النَّاس... معطيًا لنا بذلك أعظم علامةٍ على المحبَّة"(٤). "لأنَّه إذ يموت من أجل خطايانا، يُصالحنا مع الله؛ ويؤهِّلنا لقبول الميراث الموعود"(٥). ويستخدم الكتاب المقدَّس كلا اللَّفظتين: "الكفَّارة(٦) والفدية(٧)" للتعبير

(١) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٧٨٣.
(٢) المرجع نفسه، ص٧٨٤.
(٣) انظر: متَّى ٢٦: ٦٦.
(٤) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٤٨٧-٥٨٧.
(٥) المرجع نفسه، ص٧٨٥.
(٦) والكفَّارة: هي عقيدةٌ مركزيَّة في المسيحيّة، وهي الفكرة القائلة: إنه من خلال المسيح؛ يمكن للإنسانيّة الخاطئة أن تتصالح مع الله: تاريخ الفكر المسيحي، مرجع سابق، ص٥٤٣.
(٧) فدى الله شعبه من بيت العبوديّة، والفداء هنا يعني التحرير والخلاص؛ ومفهوم الفداء هو قريبٌ من مفهوم الخلاص مع إشارةٍ قانونيّة. والحياة الأبديَّة قد تكون مرادف الخلاص المعتبر =

عن عمل اللّه في خلاص وفداء شعبه... وكانت الفدية تعبيرًا عن محبَّة اللّه، سواء قدَّم الإنسان ذبيحةً تكفيرًا عن خطاياه؛ أو قدَّم اللّه للإنسان هذه الكفَّارة أو الفدية[١].

وبما يتعلَّق بموت المسيح على الصليب -بزعمهم- يرون أنَّه يستمدُّ موته هذه الفاعليَّة الخلاصيَّةَ من مواجهته للعدوِّ القديم للجنس البشريِّ، وانتصاره عليه... وأصبح واضحًا أنّ الموتَ فَقَدَ كلَّ سلطانٍ عليه؛ وبالفعل عينه أبطلت قوَّة إبليس المتسلِّط على الموت[٢].

وسنرى فيما يأتي من البحث؛ أنَّ هذه الرحمة المزعومة بابن اللّه الوحيد، لا وجود لها؛ فلا الموت اختفى، ولا البشر كفُّوا عن الخطيئة، ولا الناس صارت ترى ربَّها عيانًا؛ ولا الآلام زالت؛ ولا الشيطان توقف عن أفعاله؛ لا جديد إذن. إنَّما المسيح عيسى ابن مريم رسولٌ قد خلت من قبله الرسل؛ لم تتبدّل سنَّة اللّه تعالى في خلقه؛ قضى إلى النَّاس سبيل إنجاء أنفسِهم وأهليهم من النَّار؛ ولا بدَّ من التكاليف الشرعيَّة المنجية؛ فلا تنتظر أحدًا يحمل عنك، أو يقوم بدلًا عنك بالسير في سبيل النجاة، من دون سعيٍ منك؛ تلك هي الظنون الكاذبة.

ح. إقامة الملكوت:

ويأتي الملكوت عند النَّصارى بمقابل نعيم الجنَّة في الإسلام؛ وكلتا العبارتين: «ملكوت اللّه»، و«ملكوت السماوات» تدلاّن على عدّة معانٍ عند النَّصارى، فنذكر من ذلك[٣]: أنّها تدلّ على حياة التقوى في القلبِ[٤]؛

= كحياة تامَّة، وثابتة إلى الأبد، ومعفيَّة من كلِّ تبدُّل وتقلُّب.: جورج حبيب بباوي: موت المسيح على الصَّليب حسب تسليم الآباء، (ط١)، ٢٠٠٩م، ص٢٠٩. المحيط الجامع في الكتاب المقدّس والشرق القديم، مرجع سابق، ص٥٠٩.

(١) موت المسيح على الصليب حسب تسليم الآباء، مرجع سابق، ص١٨٧.

(٢) معجم اللاهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٧٨٥.

(٣) انظرها في قاموس الكتاب المقدّس، مرجع سابق، ص ٩١٩ و L 'abbé H . Lesetre; La clef des Evangiles . Lethielleux libraires - editeur Paris, p 158

(٤) انظر: متّى ٦ : ٣٣

وهي النظام الذي أتى المسيح لينظّمه :«من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرر ويقول: توبوا لأنّه قد اقترب ملكوت السّماوات»[١]. ويذكرون أنّه اقترب ملكوت الله عندما دخل الله نفسه -عياذًا بالله- إلى تاريخ الجنس البشري كإنسان، فالمسيح يسوع يملك الآن - بزعمهم- في قلوب المؤمنين، لكن ملكوت السّماوات لن يتحقق تمامًا إلا بعد إدانة كلّ الشّر الذي في العالم وإزالته، فقد جاء المسيح إلى الأرض أوّلا كالعبدالمتألّم، ولكنّه سيأتي ثانية كالملك والديّان، ليملك ظافرا على كلّ الأرض[٢]. ويقصد بالعبارتين كذلك: مجد المسيح؛ وسلطان الله على الكلّ؛ والحالة السماوية (لعلّهم يقصدون بذلك مكان التنعيم الأبدي بهذه العبارة)[٣]. وملكوت السّماوات أهلُه الفقراء، والمساكين والمضطهدون، والذين ينكرون ذواتهم وأهل الطّاعة والخاشعون، والزاهدون في ملذّات هذا العالم، والذين يحققون مشيئة الآب[٤]. في تصويرٍ منهم لحالة التنعيم الأبدية.

المطلب الثاني
صياغة النَّصارى لمراحل التدبير الخلاصي

إنّ أوَّل ملاحظةٍ يمكننا أن نقف عندها هي أنّ التدبير الخلاصي في بنائه اللاهوتيِّ الفكريِّ هو عبارةٌ عن وضع مجمل العقائد والتصوُّرات المسيحيَّة في قالبٍ منطقيٍّ يجمع أجزاءها، ويُحيل بعضها على بعضٍ في الفهم والإفهام؛ وهو محتاجٌ ومفتقرٌ في عناصره إلى العهد القديم[٥]:

(١) انظر: متّى ٤ : ١٧
(٢) بروس بارتون ، رونالد بيرز، وآخرون: التّفسير التّطبيقي للكتاب المقدّس، ترجمة شركة ماستر ميديا (دط) ، القاهرة ، مصر، (دت)، ص ١٨٧١.
(٣) انظر: متّى ٨ : ١١
(٤) La clef des Evangiles op.cit, p 158 .
(٥) العهد القديم والعهد الجديد هما الجزءان الرئيسيان للكتاب المقدّس الذي تؤمن به النّصارى؛ =

فخطيئة آدم فيه، وإعلان الله عن نفسه بالأنبياء فيه، والوعود المسيانيَّة[1] فيه... إلى آخر ما يصف النَّصارى في ذلك.

وأمّا عند الصِّياغة فيبتدئون بالخطيئة الأصليَّة التي كسرت العلاقة الخاصَّة والجميلة التي أرادها الله تعالى حسبهم أن تكون بينه وبينهم؛ والتي خلق الربُّ على أساسها الإنسان على صورته كما وصفوا، فالربُّ حسبهم لم يخلق له الموت، ولا الخطيئة (بل وكأنَّما أحيانًا يصوِّرون الربَّ لم يكن يعلم بما سيحدث فيتفاجأ لذلك). ولكنَّ آدم وزوجه كَسَرَا تلك العلاقة حين أطاعا الحيَّة، وأكلا من شجرة المعرفة؛ فترتَّب على ذلك دخول الخطيئة إلى العالم؛ وكذلك دخول الموت.

لم تنته هذه المحطَّة -كما يصفها النَّصارى- بالوقوف على الدمار الذي تسبَّب فيه الإنسان الأوَّل؛ وإنَّما يصوِّر النّص الدِّينيُّ لديهم أنّ الرب تعهَّد أن يخرج من نسل المرأة - حواء- من يسحق رأس الحيَّة - إبليس- وهو يسوع كما يزعمون.

في محطَّةٍ موالية، يصوِّرون كيف يسعى الربُّ في قولهم إلى إعادة علاقته بالإنسان كما كانت، وكما كان يريدها؛ وهنا يبتدئ الكلام عن تفاقم الشرِّ في الأرض؛ فيمحو الرب - غضبًا - كلَّ نفسٍ من وجه الأرض بالطوفان إلاَّ نوحًا وبنيه وزوجاتهم. ثمَّ -عياذًا بالله تعالى- يندم الرَّب، ويكتب على نفسه أن لا يُهلك أبدًا الأنفس ويبيدها بالطوفان كما فعل سابقًا، فيصوِّر نصُّ التوراة التي بأيديهم تردُّد الربِّ -عياذًا بالله-

= فالعهد القديم ما كتبه من كانوا قبل المسيح، ابتداءً من أسفار التوراة؛ والعهد الجديد ما كتبه من جاؤوا بعد المسيح عليه السلام، ابتداءً بالأناجيل. انظر: le Dictionnaire pratique des connaissances Religieuses op. cit, (1/795).

(١) يقصد بالمسيانيَّة: في العهد القديم: انتظارُ، ورجاءُ مجيء المسيح؛ معجم الإيمان المسيحي، مرجع سابق، ص٤٦٥. ولمَّا جاء المسيح ابن مريم لم يؤمن به اليهود أنَّه المسيح المنتظر بحسب الكتب التي عندهم؛ ولذلك سيتبعون الدجَّال عند خروجه، والله أعلم.

واضطرابه بين تعذيب خلقه بذنبوهم، وبين محاولاته لتخليصهم، في تصويرٍ بشريٍّ محض.

بعد هذه المحطَّة يأتي كلام الرب إلى البشر من طريق أنبيائه؛ كطريقٍ خلاصيَّة، وإعادةٍ للعلاقة التي كسرها الإنسانُ؛ ويستغرق الكلام عن الأنبياء أجزاءً كبيرة جدًّا من العهد القديم بل هي العهد القديم؛ وفيها الكلام عن الشريعة وتفصيلاتها المتكاثرة. وفي هذه المحطَّة لا جديدَ بالنِّسبة إلينا كمسلمين؛ حيث نعلم أنّ الله تعالى لم تره أبصار الناس في الدنيا؛ ولكنَّه خاطبهم من طريق أنبيائه، وأنزل هُداهُ إليهم في كتبه المنزَّلة على بعضهم؛ وتنوَّعت الشرائع بحسب ما شاء الله، وَوِفق ما يُصلح شئون النَّاس بحسب الزمان والمكان وأهليهما. ولكنَّ المشكلة هي في تحوير النَّصارى لهذه المفاهيم، وجعلها مرحلةً زمانيّة فقط من تاريخ الهداية الإلهيّة، ووصفها باعتبار المحطَّة التي تليها بأنّها غير نافعةٍ وغير مجديَةٍ؛ ولذلك تخلَّى الرب عنها، ولم يبق أمامه إلاَّ إرسال ابنه الوحيد ليخاطبهم من خلاله.

تليها محطّةٌ أخرى، نتجت كما ذكرنا عن عدم قدرة الشريعة والأنبياء عن تحقيق إرادة الرَّب؛ فأرسل ابنه الوحيدَ ليحقِّق به المصالحة مع البشر؛ وظهرت -حسبهم- النِّعمة في مقابل الناموس؛ وذلك بسبب ضعف الإنسان؛ وقلَّة حيلته؛ وحبِّ الرّب للبشرية، وصارت النجاة والخلاص بمجرَّد الإيمان بيسوع ابن الله الوحيد وقبوله ربًّا ومخلِّصًا؛ فهو لأجل الخطاة - وهو الذي بلا خطيةٍ- قَبِل أن يحمل الآلام، والخطايا، وأن يكون فديةً ويقدِّم كفَّارة ليخلصوا. ويحاول النَّصارى أن يوفِّقوا بين هذه المرحلة والتي قبلها، بكون الأنبياء والشرائع ممهِّدة لإرسال الابن الوحيد وبذلك تكون كلُّ حقيقةٍ مهيَّئةً منذ الأبد لأجل المسيح، ولها غايةٌ هي: "الخلاص"[1].

(١) فالتر كاسبر: اللاَّهوت والكنيسة، ترجمة يوحنا منصور، (ط١)، المكتبة البولسيَّة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٦م، ص٢٣٧.

نتيجة هذه الطريقة الجديدة، والعهد الجديد هي الهدف من كلِّ ما سبق بيانهم له من التدبير الخلاصي: الانتصارُ على الموت، وسحق رأس الحيَّة، وكفارة الذنوب، وتحقُّق الفدية؛ إنّه خلاص البشرية ورجاء الأمم؛ إنَّه الدخول في ملكوت الله أو ملكوت السموات، في الحال، وسيُتمَّم في أحسن صورةٍ في المآل.

المبحث الثاني
مكانة الرحمة من المخطط الخلاصي النَّصراني

إنَّ المتتبِّع لحديث النصارى عن صفات الله عندهم، يتبدَّى له أنَّهم لا يبحثونها عمومًا، إلاَّ من خلال ربطها بمرتكزات ديانتهم؛ والمتعلِّقة أساسًا بالثالوث، وأعمال كلِّ أقنوم من أقانيمه؛ كما يتخلَّل ذلك - عادةً- عمليَّات التبرير والتفسير للأعمال الإلهيَّة، كما هو الشأن ههنا في موضوع الرحمة ضمن المخطط والتدبير الخلاصي. ويمكننا تبيُّن ذلك منهجيًّا من خلال تحديد مفهوم الرحمة لدى النَّصارى كمقدِّمة، ثمّ ببيان علاقة الرحمة حسب ما يرونه بمكوِّنات التدبير الخلاصي بقصدٍ أن نستشفَّ الصورة الكاملة لتلك المكانة في الشرح والتبرير؛ ولنشرع في المقصود كالآتي:

المطلب الأوّل
مفهوم الرَّحمة عند النَّصارى

أمَّا من الناحية اللغويَّة: فالألفاظ النَّصرانيَّة تعود من حيث الأصول إلى العبرانيَّة والآرامية والسريانيَّة واليونانية وكذا اللاتينية؛ والترجمة لهذه الألفاظ العبريَّة واليونانيَّة في اللغات الحديثة، تتراوح بين الرحمة والمحبّة، مجتازةً معانيَ مختلفة: الحنان، والشفقة، والرأفة، والحلم،

والطيبة، بل حتَّى النِّعمة...، وإن كان هذا اللَّفظ يتضمَّن مفهومًا أوسع(١). وإنَّ المصطلحات المتداولة -المتأثِّرة بلا شك باللغة اللاَّتينيَّة- المستعملة قديمًا في الكنيسة، لا تميِّز بين الرحمة والرأفة والصفح(٢).

وأمَّا من الناحية الاصطلاحيَّة فليس هنالك كثير فارقٍ بين مفهوم الرَّحمة في الإسلام وفي النصرانيّة؛ إنّما الفرق يقع في إدراجاتها التبريريَّة الدِّينية؛ بين ما نوافقهم عليه أو نخالفهم فيه. وقد وردت فقرات كثيرة في الأناجيل التي بين أيدي النَّصارى تتكلَّم عن الرحمة، وسعتها(٣)، أكثره ممَّا يوافق ما جاء في القرآن العظيم، من ذلك: «اُطلبوا الربَّ ما دام يوجد، اُدعوه وهو قريبٌ، ليترك الشرِّير طريقَه، ورجل الإثم أفكارَه، وليتُب إلى الرَّبِّ فيَرحَمَهُ؛ وإلى إلهنا، لأنَّه يُكثِر الغفران»(٤). وورد كذلك أخذ العبد بحظِّه من صفة الرحمة التي يتَّصف بها الرب: «بل أحبُّوا أعداءَكُم، وأحسنوا، وأَقرضوا وأنتم لا ترجون شيئًا؛ فيكون أجركم عظيمًا، وتكونوا بني العلِيِّ؛ فإنَّه منعمٌ على غير الشاكرين والأشرار. فكونوا رحماءَ كما أنَّ أباكم أيضًا رحيمٌ»(٥). وهنا ما ينسب للمسيح عليه السلام من قوله: "وتكونوا أبناء العليِّ" مقصودهم به البنوّة المجازية الرَّوحيَّة للمؤمنين والمتَّبعين؛ وهي كذلك غير جائزة الإطلاق في حقِّ اللّه تعالى. كما ورد في الأناجيل التي بين أيدي النَّصارى، أنَّ المسيح عليه السلام قال لليهود الذين أنكروا عليه مجالسة الآثمين والخاطئين: «لا يحتاج الأصحَّاء إلى طبيبٍ، بل المرضى. فاذهبوا وتعلَّموا ما هو: إنِّي أريد رحمةً لا ذبيحةً؛ لأنِّي لم آتِ لأدعوا

(١) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٣٧٤.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٧٤.
(٣) وفي السعة قالوا: رحمة الله ليست مجرَّد صفحه عن الخطاة؛ ولكنَّها موقفه من الإنسان؛ بل ومن الخليقة بعامّة؛ فما أكثر مراحمه، فهي لا تزول. وليم وهبة بباوي: دائرة المعارف الكتابية ط٣، دار الثقافة المسيحية: القاهرة- مصر، ٢٠٠١م، (٨٨/٤). وقالوا: لا يحدُّ الرحمة الإلهيَّة سوى قساوة قلب الخاطئ، معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٣٧٥.
(٤) إشعيا ٥٥: ٦-٧.
(٥) لوقا ٦: ٣٥-٣٦.

أبرارًا، بل خطاةً إلى التوبة»[١]. وبطبيعة الحال، الخطاب ظاهرٌ وواضحٌ أنّه من نبيٍّ لا من ابن إله كما يزعمون.

المطلب الثاني
علاقة الرحمة بمكوِّنات التدبير الخلاصي عند النَّصارى

إنَّ الرحمة أحد أساسي التدبير الخلاصي - والآخُر هو المحبَّة - فحبُّ الربِّ للإنسان جعله يرحمه؛ وفي المقابل رحمة الربِّ بالإنسان ينبغي أن تجعل الإنسان يحبُّ ربَّه؛ هذا ملخَّص الأساسين. فعندما يدرك الإنسان أنّه تاعسٌ، أو خاطئٌ، حينئذٍ ينكشف له بوضوحٍ متزايدٍ، وجه الرحمة اللاَّنهائيَّة[٢]؛ ومن هذه الحيثيَّة تكون الرحمة من صلب التدبير الخلاصي إذن. والكتاب المقدَّس حسب النَّصارى يُظهر الله - وإن كان عليه أن يعاقب شعبه عن خطاياهم- إلاَّ أنَّه تأخذه الشفقة بهم، بمجرَّد أن يصرخوا إليه من أعماق شقائهم[٣]. فيعلن هوشع[٤] أنَّه: رغم أنَّ الله قرَّر ألاَّ يعود يرحم إسرائيل بعدُ وأن يعاقبهم[٥]، إلاّ أنَّه يتغلَّب فيه فؤاده، وتضطرم مراحمه؛ فيعتزم[٦] ألاَّ يدع غضبه يتفاقم[٧].

وحقيقةً، كلامُ النَّصارى تصويرٌ للربِّ بالصورة البشرية، مهما أرادوا تزيينه؛ فهو في أقصى غاياته ومنتهاه، كصورة أمٍّ حنونٍ، تتعامل مع أبناءٍ

(١) متّى ٩: ١٢-١٣.
(٢) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٣٧٤.
(٣) المرجع نفسه، ص٣٧٥.
(٤) أحد أنبياء بني إسرائيل بحسب اليهود والنصارى.
(٥) انظر: هوشع١: ٦.
(٦) انظر: هوشع ١١: ٨-٩.
(٧) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٣٧٥.

غير برَرَة؛ ثمّ يصوِّرون اضطراب الرب بين رحمته ونقمته، لا على أساس أنَّها رحمةٌ في مكانها، ونقمة في محلِّها وغضبٌ.

وهنا نحتاج إلى بيان الكيفيَّة التي يتم بها الترويج للتدبير الخلاصي في النشاطات التنصيريَّة، وهو الأسلوب الذي يعتمده المنصِّرون بالعزف على وَتَرين حسَّاسين هما: المحبَّة والرّحمة الإلهيين؛ حيث يمكننا الوقوف على الآتي:

أ. التركيز على محبَّة الرب للبشر مع رحمته بهم:

ولا شكَّ أنّ الفطرة في الإنسان تدعوه إلى أن يحبَّ من يحبُّه؛ فكيف إذا كان من يحبُّه ويرحمه هو ربُّ العالمين. وهنا يركِّز النَّصارى على خاصيَّةٍ في هذا الحب الإلهي، إنَّها تشبُّع هذا الحب برحمةٍ لا تحدُّها الحدود؛ فهي تشمل العاصي والبارَّ؛ وهنا يقع الخلل؛ فتارةً يصوِّرون تلك المحبّة والرحمة أنَّها تشمل العاصي من حيثُ إرادة الهداية له، وعدم رضى هلاكه؛ ولكن في أحيانٍ أخرى - وخاصَّةً في الخطاب التنصيري- يصوِّرون التسوية في ذلك بين طرفي النقيض، فالنجاة تشمل العاصي والخاطئ، وكذلك المحبة، يكفي فقط أن يعترف بالمسيح ربًّا؛ وقد انتقد النصارى في أغلبهم العقيدة التي تنحو إلى خلاص جميع المخلوقات في النهاية؛ لإمكان تعارضها مع عقيدة الإرادة الحـرَّة. واقترح بعض اللاَّهوتيِّين أنَّه من الممكن للمرء أن ينال الخلاص حتَّى وإن كان يتبع دينًا آخر غير المسيحيَّة(١)... ومن اللاَّهوتيِّين المشهورين الذين يميلون بشكلٍ ما إلى ذلك، نذكر: أوريجانوس، وغريغوريوس النيصي، ورانير، ومولتمان(٢).

ومن الملاحظ كذلك تذكيرهم برحمة الربِّ طوال مراحل التدبير

(١) وقد وقفت على بعض ذلك، من مشاهدة بعض القنوات التلفزيونيَّة التنصيريَّة؛ أحيانًا يكون الخطاب بذلك واضحًا ومباشرًا؛ وأحيانًا يصعب الجزم بمرادهم.

(٢) تاريخ الفكر المسيحي، مرجع سابق، ص٣٥٨. بتصرُّف طفيف.

الخلاصي، كقولهم -مثلًا-: حفظ اللّه الإنسان برغم سقوطه، وبرغم سيادة الموت على الإنسان، ظلَّ الإنسانُ في الوجود بسبب رحمة اللّه... إنّ الإبقاء على الإنسان كان أوَّل مظاهر الرحمة الإلهيَّة(١).

ب. التركيز على ضعف الإنسان:

وهذا أمرٌ يدركه كذلك النَّاس ببدائه العقول؛ قال اللّه تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ١٥]، وإنّ الضعيف يحتاج من يرحمه، ويضع عنه الأثقال التي ترهقُه؛ ويحبُّه حينها لرحمته وشفقته به. قال بعضهم في هذا السياق: اللّه يخلِّص الإنسان من الموت، ليس بمقدرة الإنسان أن يخلِّص نفسه من الموت؛ إذ تلزمه لذلك نعمةُ اللّه، الذي هو وحده الحيُّ بحكم طبيعته(٢).

ج. التركيز على وصف الآلام والآثام:

حيث لا يكفي تصوير عموم ضعف الإنسان، بل ينبغي وقفه على تفصيلاته؛ فيوضع نصب عيني الـمُخاطَب ضعفُه أمام الابتلاءات المختلفة التي توغر فيه بآلامها؛ وأمام الآثام والخطايا التي تحاول إعدام الروح فيه وتبيد إنسانيَّته. إنّ هذا التركيز منهم، والذي وإن اعتمد على وصفٍ واقعيٍّ لا غبار عليه؛ غير أنَّ هدفه – بشعورٍ أو من دونه– هو تحطيم الإرادة الإنسانيَّة، ونفيُها، بل ونفيُ التكليف بالأساس. المراد ههنا أن يقف الـمُخاطب عاجزًا معترفًا أنَّه لا يستطيع شيئًا ولا يقدر على شيءٍ في مواجهة مصائب الدنيا وآلامها، ومواجهة إغراقه في الذنوب والخطايا؛ ليصرخ: "هل من معين؟"، "هل من مخلِّص؟" "هل من راحم؟" لتأتيَهُ في إثر ذلك دعوات الرحمة بوجود المخلِّص والفادي، رجاءِ الأمم، الَّذي يحبُّه ويرحمُه.

(١) موت المسيح على الصليب حسب تسليم الآباء، مرجع سابق، ص٢٣٧.
(٢) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٧٨٢.

د. التركيز على صفات المخلِّص:

فهو ابن الله الوحيد، الذي هو بلا خطيَّة، ذبيحةِ الآب الذي بذله كفارةً لخطايا البشر، وفداءً لهم. الذي أخذ الصورة البشريَّة حين تأنَّس (أي صار إنسانًا)، وقَبِل أن يموت فوق الصليب، وعذِّب واستُهزئ به قبل موته، وهو الآتي لخلاص البشريَّة رحمةً بهم. والنتيجة الدعويَّة التي يصوغونها بعد هذه المقدِّمات للصفات هي: كيف لا تكون ممتنًّا لمن أحبك وضحى لأجلك، وكان رحمةً لك؟ كيف لا تتبعه؟ ألا يستحقُّ منك أن تكون خادمه؟ إلى آخر الاستفهامات التي تحاول أن تثير في المخاطَب الحياء الذي رُكِّز في النَّفس الإنسانيّة فطرةً أن لا يُقابل الإحسانُ إلاَّ بالإحسانِ. وهنا يأتي النصُّ الشهير من إنجيل يوحنا: «لأنَّ هكذا أحبّ الله العالمَ حتَّى بذَل ابنه الوحيد؛ لكي لا يهلك كلُّ من يؤمن به؛ بل تكون له الحياة الأبديَّة. لأنَّه لم يرسل الله ابنَه إلى العالم ليدين العالم؛ بل ليخلُص به العالمُ»[1].

هـ. التركيز على حدوث الخلاص:

في الخطاب التَّنصيري نجد تهليلاتٍ وأفراحًا تُذاع في الكلمات والصور والصلوات، بسبب الخلاص الذي وقع بالمخلِّص يسوع ابن الله الوحيد -بزعمهم- فيشعرونك بتلك الأفراح وكأنّه حقيقةً قد وقع، وأنّه حقيقةٌ معيشةٌ. ولكنَّ الفرح عادةً ما يُذهب عقل الإنسان إلى أبعد المدى؛ كالذي أخطأ من شدَّة فرحه، فقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك. والسؤال ههنا: هل تحقق الخلاص فعلًا؟

الحقُّ أنَّ ما تتحقَّق، هو في أحسن حالاته وأقصى ثمراته هو ما يحدث للأنبياء من ثمراتٍ، لم يحدث ما هو أعجبُ ممَّا يحدث لهم.

(١) يوحنا ٣: ١٦-١٧.

فالنَّاس مؤمنٌ وكافر -بابن الله كما يعتقدون- والعصاة والفاسقون والمذنبون الخطاة موجودون؛ والشعائر ما تزال في دين من ألَّه المسيح ابن مريم؛ وملكوت السماوات ونعيمه مخصوص بالمتّبِع المؤمن دون من سواه؛ وابن الله -بزعمهم- حين ظهر للنَّاس ليكون ذلك حجَّة عليهم وسبيلًا لهدايتهم لم يظهر إلاّ في الصورة البشريَّة - كالأنبياء تمامًا- وبعد قيامته في قولهم لم يره إلاَّ أناسٌ قليلون، ومخصوصون من الذين آمنوا به أصلًا من قبلُ. وهو بعد قيامته - في زعمهم- قد أرسل تلاميذه والمؤمنين به ليبشِّروا النّاس بالخلاص وطريقِهِ، ويشهدوا له بما فعل؛ لكن: أليست هذه -بعينِها- طريقة الأنبياء التي حكموا عليها بأنَّها غير مجدية، ولا تحقِّق الأثمار التي ترتجيها رحمة الرب وحبُّه للبشرية؟ بلى، لم يتغيَّر شيءٌ البتّة.

وإذا تأملنا كلامًا مبالغًا فيه كقولهم: "وقد حمل المسيح.. جميع ذنوب الجنس البشري، وعيوبَه، وأفناها أمام الحضرة الإلهيَّة؛ ثمَّ حطَّم قيود الموت، إذ قام من القبر حيًّا في اليوم الثالث. وهكذا صار رأسًا لنسلٍ روحيٍّ جديدٍ، بحياةٍ مختلفةٍ تمامًا عن الحياة الفانية التي ورثناها من آدم"(١). لا نجد فيه بتاتًا حقيقة التغيير.

(١) قراءة صوفيَّة لإنجيل يوحنَّا، مرجع سابق، ص ١٢٨.

المبحث الثالث
النقد الإسلامي للخلاص النَّصراني
من خلال الرحمة

نأتي ههنا بعد الذي بيَّناه في المقدِّمات السابقة إلى النقد -وهو المقصود بالبحث- والنقد ههنا جعلناه للمرتكزات التي تحمل بناء المفهوم؛ وجعلناه من خلال المفاهيم الإسلاميَّة التي لا تتناقض: لا في نفسها، ولا في غيرها؛ فنحاول ههنا القيام بخطوتين متساندتين لأجل ذلك: أوَّلا بيان معالم الرحمة الإلهيَّة الحقَّة في الإسلام؛ مع بيان تناسق معانيها، واتِّساق نسيجها في المفاهيم والتشريعات على السواء. ثمَّ ثانيًا: نقوم بناءً على المفاهيم السابقة بكشف الاضطراب الذي سلكه النَّصارى في محاولة جعل المخطط الخلاصي متناسقًا منطقيًّا، ويعنينا التبرير بالرحمة أساسًا.

المطلب الأوَّل
بيان معالم الرحمة الإلهيَّة في الإسلام، وتناسق معانيها المبثوثة في الشريعة

الرحمة في اللغة، يعود جذرها إلى أصلٍ واحد، يدلُّ على الرقَّة والعطف والرأفة. والرُّحم والمرحمة والرَّحمة بمعنًى؛ يقال: رحِمَ رُحْمًا[1]. والفرق

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: المقاييس في اللغة؛ ت شهاب الدّين أبو عمرو؛ (دط)، =

بين الرَّحمة والرقَّة: أنَّ الرقّة والغلظة يكونان في القلب وغيره خلقةً؛ والرحمة فعل الراحم؛ والنَّاس يقولون: «رقَّ عليه فرحمه» يجعلون الرقّة سبب الرَّحمة[1]. والفرق بين الرأفة والرَّحمة: أنَّ الرأفة أبلغ من الرَّحمة؛ ولهذا قال أبو عبيدة: إنّ في قوله تعالى: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧] تقديمًا وتأخيرًا؛ أراد أنَّ التوكيد يكون في الأبلغ في المعنى؛ فإذا تقدَّم الأبلغ في اللَّفظ كان المعنى مؤخَّرًا.[2] والرّحمة أعمُّ من اللُّطف[3]. والرأفة مبالغةٌ في رحمة مخصوصة، هي رفع المكروه، وإزالة الضرِّ.[4] ورحمة الله عامَّةٌ وسعت كلَّ شيءٍ[5]، وصلاتُه خاصَّةٌ بخواص عباده[6].

واسمه تعالى «الرَّحمن» خاصٌ به، لم يسمَّ به غيره[7]. ورحمن أبلغ من رحيم؛ والرّحمن خاصٌّ لله، لا يسمَّى به غيره، ولا يوصف؛ والرحيم يوصف به غير الله تعالى، فيقال: رجلٌ رحيمٌ، ولا يقال رحمن[8]. وإنَّما قيل لله عزَّ وجلَّ

= دار الفكر: بيروت- لبنان، (دت)؛ ص٤٤٦؛ إسماعيل بن حمَّاد الجوهري: الصحاح، تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة، تحقيق أحمد عبدالغفور عطَّار (ط٣)، دار العلم للملايين: بيروت- لبنان (١٩٢٩/٥)؛ مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ت خليل مأمون شيحا؛ (ط٢)، دار المعرفة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٧م، ص. مجد الدِّين أبو السعادات المبارك بن محمَّد الجزري ابن الأثير: النِّهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق علي بن حسن بن علي بن عبدالحميد الحلبي الأثري، (ط١)، دار ابن الجوزي: الرياض- المملكة العربيَّة السعوديَّة، ١٤٢١هـ، ص ٣٥٢.

(١) أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ت محمَّد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة: القاهرة- جمهورية مصر العربية، ص ١٩٦.

(٢) الفروق اللغوية، مرجع سابق، ص ١٩٦.

(٣) أبو البقاء أيُّوب بن موسى الحسيني الكفوي: الكلِّيات، تحقيق عدنان درويش، محمَّد المصري، (ط٢)، مؤسّسة الرسالة: بيروت- لبنان، ١٩٩٨م، ص ٥٣.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤٧١.

(٥) قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]؛ وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] والكافر شيءٌ ولا يدخلها؟ جوابه: المراد بعموم «كلّ شَيْءٍ» المخصوص وهم المؤمنون؛ كقوله تعالى: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ». أو أنّ المراد: رحمته في الدُّنيا، فإنَّها عامَّةٌ؛ بدر الدِّين بن جماعة: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، (ط١)، تحقيق عبدالجواد خلف، دار الوفاء: المنصورة- مصر، ١٩٩٠م، ص ٣١٨.

(٦) الكلِّيات، مرجع سابق، ص ٤٧١.

(٧) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدِّمشقي: تفسير القرآن العظيم، (ط١)، دار ابن حزم: بيروت- لبنان، ٢٠٠٠م، ص ٦٦.

(٨) مجد الدِّين أبو السعادات المبارك بن محمَّد الجزري ابن الأثير: النِّهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق علي بن حسن بن علي بن عبدالحميد الحلبي الأثري، (ط١)، دار ابن الجوزي: الرياض- المملكة العربيَّة السعوديَّة، ١٤٢١هـ، ص ٣٥٢.

رحمن، لأنَّه يملك الرَّحمة، ويقدر على كشف الضرِّ، ويُلجأ إليه برحمته... ولم يَجُزْ أن يُقال للمخلوق رحمن، لأنَّه لا يقدر كقدرته؛ فربَّما رقَّ بالرَّحمة، ولم يقدر على كشف الضرِّ عن المضرور، فقيل له رحيمٌ، ولا يقال له رحمنٌ(١).

والرحمةُ في القرآن العظيم قد وردت على أربعة عشر وجهًا: الإسلام، الجنَّة، المطر، النبوّة، النِّعمة، القرآن، الرزق، النصر والفتح، العافية، المودَّة، الإيمان، التوفيق، عيسى عليه السلام، محمَّد صلى الله عليه وآله(٢). فيمكنُنا تتبُّع سياقاتها من إدراك معانيها، وأسرارها؛ وسوف نحاول ذلك بما يخدم الموضوع من خلال العناصر الآتية:

أ. الرحمة في المعتقد والإيمان:

إنّ من رحمة الله تعالى في المعتقد والإيمان، أنَّه جلَّ وعلا خاطبنا على القدر الذي تعقِله أفئدتنا؛ وعلَّمنا بنور الوحي القدرَ الذي نربط عليه قلوبنا مستيقنين إيّاه؛ بحيثُ لا يُبطل بعضه بعضًا؛ ولا يشكِّك بعضه في بعض؛ بل على النقيض من ذلك: يُفهم بعضه بعضًا، ويزيد من الإيمان، ويبدِّد الشكوك والأوهام؛ في المقابل نجد أنَّه لا رحمةَ في ظنون النصارى الواهمة بأنَّ الربَّ تعبَّدهم بثالوثٍ هو جوهر الديانة، يشهد العقل ببطلانه؛ وبشروحٍ يزيد بعضها في إبهام بعضٍ(٣).

(١) أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي: كتاب الزينة في الكلمات الإسلاميّة العربيَّة، تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني اليعبري الحرازي، (ط١)، مركز الدراسات والبحوث اليمني: صنعاء- اليمن، ١٩٩٤م، ص ١٩٠-١٩١.

(٢) الحسين بن محمَّد الدامغاني: قاموس القرآن، أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق عبدالعزيز سيّد الأهل، (ط٣)، دار العلم للملايين: بيروت- لبنان، ١٩٨٠م ص١٩٩. والكلّيات، مرجع سابق، ص ٤٧١-٤٧٢.

(٣) ويتَّضح ذلك لنا جليًّا من خلال بيانهم عدم وجود الأدلة الواضحة من الكتاب المقدَّس، وكذلك من خلال الكلام المتدرِّج في تقرير الثالوث عبر المجامع النَّصرانيَّة المتعاقبة خلال القرون الأولى من تاريخها؛ وأوَّل مرة استعمل بها حسب اللاهوت المسيحي كان في مجمع نيقية؛ وإلهيّة الرُّوح القُدُس لم تتقرّر إلّا في المجمع الأوّل للقسطنطينيَّة. ثمَّ لم ينته الكلام فيها؛ بل استمرَّ الكلام حول طبيعة الثالوث، خاصَّةً حول الطبيعة والمشيئة للأقنومين: "الآب والابن" ... إلخ. بل إنَّ اللفظة في حدِّ ذاتها متأخرةٌ في الظهور والاستعمال؛ في أواخر القرن الثاني في صفتها اليونانية عند ثيوفيلس الأنطاكي، =

وإنه ينبغي على المؤمن أن يعرف ربَّه بما علَّمه إيَّاه من الأسماء والصِّفات؛ فالله الرحمن الرحيم هو شديد العقاب، وهو المنتقم الجبَّار؛ ونظر العبد إلى صفةٍ دون الأخريات جهلٌ بالله تعالى؛ واتِّكالٌ على الأماني الكاذبة. وذُهول النَّصارى عن ذلك أوقعهم في تناقضات عديدة، متعلِّقة بصفات الله تعالى؛ حيث لـمّا توسَّعوا في تصوير محبَّة الله تعالى للإنسان، ورحمته به -من دون نورٍ وَحْيي، بل من عند أنفسهم- وقعوا في الانتقاص من العديد من صفاته كما مرَّ بنا.

ب. الرحمة في الشرائع والكتب:

إنَّ الله تعالى أنزل من رحمته في الشرائع وفي الكتب؛ نورًا يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سبلَ السلام؛ ولم يَشُقَّ عليهم بالتكاليف -فهو لا يريد هلاكَهُم- وإنَّما ليميز الطيِّب من الخبيث. وقد يعاقب الله تعالى بتشريعاتٍ قبل الدين الخاتم أناسًا بظلمهم كما قضى في زمانٍ إلى الذين هادوا: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء:١٦٠-١٦٢]. فالعقوبة بغرض التأديب والتطهير، والعودة بهم إلى طريق الله المستقيم؛ فأرسل الله تعالى إليهم عيسى ابن مريمَ ورحمَهم بنسخ بعض ما حُرِّم عليهم: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠]. ليختم الله تعالى برحمته محمَّد ﷺ، ويتمِّم النِّعمة عليهم، وعلى الإنسانيَّة جميعًا، والذي بَشَّر به في التوراةٍ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ

= وفي صفتها اللاتينية عند ترتليانس. انظر: معجم الإيمان المسيحي، مرجع سابق، ص ١٦٣، ودائرة المعارف الكتابية، مرجع سابق، (٣٢٧/١)؛ و dictionnaire de la theologie Catholique ; p598..

﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

إنّ رحمة الله تعالى تتجلَّى في كلِّ شرائعه؛ وعظمتُها تظهر في كونها صادرةً من الذي خلق الإنسان وركَّبه، عالِمًا بما يُصلحه وما يوبقه. رحمته أنَّه لم يكلِّفه بما لا يُستطاع، ولا تركه بغير مُستعانٍ، ولا جعل سبيله إلى الدنيا بانقطاع؛ فما المحَّرم بجوار الحلال بكثيرٍ؛ وليست العبادات تستغرق نهار العبد وليلَه، وإن كانت النيَّة والذكر تستغرقانهما. هي شرائع تنظِّم حياة الفرد والمجتمع، وتضبط علاقات العبد بخالقه، وبمخلوقاتِ ربِّه بشرًا وحيوانًا ونباتًا وجمادًا، كلُّها شرائع تجعل الخلق متراحمين، مظهرين لتجلِّي الصفة فيهم.

والشرائع أنزلها الله تعالى ليُعمل بها؛ ومخالفتها تقتضي العقوبة -شرعًا وقدرًا- رحمةً بالعبد لا إهلاكًا له؛ فالتزام الشرائع فيه صلاح الإنسان في الدنيا وفي الآخرة؛ ومخالفتها إهلاكٌ لنفسه في الدارين؛ فالعقوبات -كالحدود مثلًا- رحمةٌ وتطهيرٌ للعبد، وإصلاحٌ منه -وله- لعمله السيِّء؛ وابتلاءٌ لتمحيص صادق التوبة؛ وتدريبٌ عمليٌّ على الإقلاع وعدم العودة للذنوب والمعاصي؛ إلى آخر ذلك من الحِكَم التي لا يحيط بهنَّ إلاَّ العالم بهنَّ سبحانه.

وإنّ دائرة العقوبات كما أسلفنا بيان بعضِ مقاصدها الراحمة تعدُّ ضيِّقةً في مقابل سعة رحمة الله تعالى، ولذلك ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لـمَّا قضى اللهُ الخلقَ، كتب في كتابه على نفسه -فهو موضوعٌ عنده-: إنَّ رحمتي تغلب غضبي»[١].

(١) مسلم: التوبة، بابٌ في سعة رحمة الله تعالى، وأنَّها سبقت غضبه، ح٦٩٠٥، ص١٢٤٢. قالوا: والمراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها؛ كما يقال: غلب على فلانٍ الكرمُ، والشجاعة إذا كثرا منه. محيي الدِّين أبو زكريا يحيي بن شرف النووي: المنهاج في شرحٍ صحيح مسلم بن الحجَّاج، بيت الأفكار الدولية: عمان- الأردن؛ الرياض- المملكة العربية السعودية، ص١٦١١.

أمَّا في النَّصرانيَّة التي لم تشتمل على تشريعاتٍ ذات بال -لأنّه في الأصل ما جاء المسيح عليه السلام إلاَّ متَّبعًا لشريعة موسى عليه السلام- فإنَّ النّصارى ابتدعوا شرائعَ هي مزيجٌ من بعض ما كان في شريعة التوراة، مع تحويرٍ لها لتتناغم مع المعتقدات الجديدة؛ مع إحاطتها بتعقيداتٍ أَسراريَّة؛ جعلتهم يتعبّدون بما لا يعلمون، متحمِّلين لرَهَقٍ شديدٍ؛ من دون أن تظهر تباشيرُ رحمةٍ ربَّانيَّة[1] تنظِّم حياة الناس بعضهم مع بعض؛ أو تضع الحدود الرادعة. وأمّا ما هو مسطورٌ في تنظيم المجتمع ونحوها من النظم في كتابات النَّصارى قديمًا وحديثًا؛ فغالبه الأعمُّ هو من خارج النَّص الدِّيني الإنجيليِّ الذي بين أيديهم اليوم؛ وإنّما يستمدون أشياءَ من التَّوراة التي بين أيدي اليهود، ومعالمَ أخرى من كلام المفكِّرين والفلاسفة، ونحوهم.

ج. الرحمة في الأخلاق والسلوك:

الأخلاق والسلوك هما من الشَّريعة؛ وإنّ الالتزام بالشريعة، يُثمر سلوكًا وخُلقًا رفيعًا؛ ولذاك كان رسول الله ﷺ قرآنًا يمشي بين النَّاس؛ ولـمّا قيل: يا رسول الله، ادُعُ على المشركين، قال: «إنِّي لم أُبعث لعَّانًا، وإنّما بُعثْتُ رحمةً»[2].

ورحمة الله تعالى تتجلَّى كذلك في رَزْقِ النَّاس الخلق الحسن، سواءً ما جبَلهم عليه فطرةً، أو ما أذن لهم في اكتسابه والتخلُّق به؛ وكذلك بما اصطفاه لهم من المبلِّغين المتخلِّقين، الذين نصبهم لهم إسوةً حسنةً؛ فينظر العبد فيهم ويقتفي الأثر.

والنَّصارى يعجبهم كثيرًا أن يحاوروا المسلمين في باب الأخلاق؛ لما يعتقدونه لديهم من الثراء في التَّشريعات الأخلاقيّة، والتي يُظهرون بها

(١) الرحمة أنزلت فعلًا في ما أنزله الله تعالى على أنبيائه من بني إسرائيل، وعلى آخرهم عيسى عليه السلام؛ وإنّما طمسو آثارها يوم حرَّفوا ما أنزله الله إليهم.

(٢) مسلم: البر والصِّلة، باب النَّهي عن لعن الدوابِّ وغيرها، ح٦٥٥٦، ص١١٨٤.

المرحمةَ التي لديهم، وخاصَّةً في عدم مدافعة السيِّئَة بالسيِّئةِ؛ مصوِّرين الأمر وكأنّه من أعظم التجلِّيَّات في معاملتهم للنّاس بالرحمة؛ وغاب عنهم أنَّ عدم مدافعة السيِّئة بالسيِّئة مطلقًا لا يُصلح معاش النَّاس في كلِّ الأحوال؛ كما لا يُصلحه مواجهة كلِّ السيِّئات بالسيِّئات في كلِّ زمانٍ ومكانٍ. وإنّما شريعة الإسلام الخالدة التي تمَّت بها النعمة بكمال الدِّين هي التي جاءت مصلحةً لمعاش النَّاس نظرًا وعملًا؛ بحيث أوجب الله العدل وندب إلى الفضل؛ فمن انتصر من بعد ظُلمه فلا سبيل عليه؛ ومن عفى عمَّن ظلمه فهو كريمٌ نبيلٌ؛ وتوازن الأمرين جميعًا في دنيا النّاس يحقِّق المرحمة بينهم حقًّا وصدقًا.

د. الرحمة في الأقدار:

إنَّ النظر في أقدار الله تعالى ممَّا يزيد في الإيمان؛ وقد ينقلب المتعجِّل في تفهِّم مساراته إلى النقيض من ذلك. فعلى سبيل المثال: إنَّ الأقدار التي تصيب المرء ابتداءً من دون كسبه يجعلها الله تعالى باب رحمةٍ عظيمةٍ لمن يتلقَّاها مؤمنًا محتسبًا فعن عائشة زوج النبيِّ ﷺ، قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن الطاعون، فأخبرني أنَّه: «عذابٌ يبعثه الله على من يشاء؛ وأنَّ الله جعله رحمةً للمؤمنين: ليس من أحدٍ يقع الطاعون، فيمكث في بلده صابرًا محتسبًا؛ يعلمُ أنَّه لا يصيبه إلاَّ ما كتب الله له، إلاَّ كان له مثل أجر شهيدٍ»[1].

والمصائب التي هي رحمةٌ للمؤمن الصابر المحتسب، هي مناسَبَةٌ ليُظهر العبد الرحمة التي جعلها الله تعالى في قلبه المؤمن؛ فعن أسامة بن زيدٍ رضي الله عنهما قال: أرسلت ابنة النبيِّ ﷺ إليه: إنّ ابنًا لي قُبض، فأْتنا. فأرسل يُقرئ السلام ويقول: «إنّ لله ما أخذ، وله ما أعطى؛ وكلٌّ عنده بأجلٍ

(١) البخاري: أحاديث الأنبياء، بابٌ، ح٣٤٧٤، ص٧٣١.

مسمًّى؛ فلتصبر، ولتحتسب». فأرسلت إليه تقسم ليأْتِيَنَّها. فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبيُّ بن كعبٍ، وزيد بن ثابتٍ، ورجالٌ. فرُفِع إلى رسول الله ﷺ الصبيُّ ونفسُه تتقعقع، قال حسِبته أنَّه قال: كأنَّه شنٌّ، ففاضت عيناه. فقال سعدٌ: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب عباده؛ وإنَّما يرحم الله من عباده الرُّحماءَ»[1].

هـ. الرحمة في المعاش:

قال الله تعالى ممتنًّا على النّاس برحمته: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠]. وقال كذلك سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٢-١٣]. فالله سخّر للإنسان ما شاء ممّا خلق، وقدّر لهم أرزاقًا وأقواتًا، من خزائن فضله التي لا تنضب، وأحلَّ لهم الطيِّبات، وحرَّم عليهم الخبائث، رحمةً بهم. وأمرهم في مقابل ذلك -من بعد شكر النِّعم والمراحِم- أن يتَّصفوا بالرِّقّة فلا يسرفوا ولا يبذِّروا ولا يفسدوا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:١٣]؛ وأمرهم أن يتّصفوا بالرَّحمة مع المخلوقات التي سخَّرها لهم؛ قال ﷺ: «إنَّ الله كتب الإحسانَ على كلِّ شيءٍ؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلةَ؛ وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحةَ. وليحُدَّ أحدُكم شفرته، وليُرِح ذبيحتَهُ».[2]

والرحمة في المعاد: إنَّ الله تعالى رحمنٌ رحيمٌ لم يزل أزلًا وسيظلُّ كذلك أبدًا، هو الأوّل والآخر حقًّا؛ ورحمته في الدار الدنيا، وفي الدار

(١) البخاري: الجنائز، باب قول النبيِّ ﷺ: «يعذَّب الميِّت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النَّوح من سنَّته»، ح١٢٨٤، ص٢٦٦.

(٢) التِّرمذي: الديَّات، باب ما جاء في النَّهي عن المُثْلَة، ح١٤٠٩؛ ص٣٣٢. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ؛ وصحَّحه الألباني.

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

الآخرة، فهو رب العالمين جميعًا؛ وإذا كانت الدار الدنيا -كما يدلُّ عليها اسمها- ممتلئةً بالمنغِّصات والآلام، والمكدِّرات، وتختلط فيها الأقدار حلوةً ومُرَّةً؛ بما اقتضته حكمة الله تعالى من كونها دار ابتلاء وتمحيصٍ للخلق؛ فإنَّ الدار الآخرة دار الجزاء، ودار الخلود، وهي الباقية. وعلى ذلك، فإنّ انقطاع الحياة الدنيا الفانية، وانتهاء الابتلاء، ومجيء زمن الجزاء، هو أدعى لظهور تجلّيات رحمة الله تعالى بالخلق.

فعن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة؛ فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمةً؛ وأرسل في خلقه كلِّهم رحمةً واحدةً. فلو يعلم الكافر بكلِّ الذي عند الله من الرَّحمة لم ييأس من الجنَّة؛ ولو يعلم المؤمن بكلِّ الذي عند الله من العذاب، لم يأمن من النَّار».[1] وفي مسلم: «إنّ لله مئة رحمة، أنزل منها منها رحمةً واحدةً بين الجنِّ والإنس والبهائم والهوامِّ. فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون؛ وبها تعطف الوحش على ولدها؛ وأخَّر الله تسعًا وتسعين رحمةً، يرحم بها عباده يوم القيامة»[2]. ومن أعظم تلك الرحمة إخراج عصاة الموحِّدين الذين بلغت بهم ذنوبهم دخولهم النَّار فعن أبي هريرة مرفوعًا: «حتَّى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النَّار، أمر الله الملائكة أن يُخرجوا من كان يعبدُ الله؛ فيخرجونهم، ويعرفونهم بآثار السُّجود»[3]. وكذلك ما ورد في حديث الشفاعة؛ ورحمة أهل المحشر من

(١) البخاري: الرِّقاق، باب الرجاء مع الخوف، ح٦٤٦٩، ص١٣١٥.

(٢) مسلم: التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنَّها سبقت غضبه، ح٦٩٠٨، ص١٢٤٢. وهنا كلامٌ جميل لابن حجر قال: فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف، ولا في الخوف عن الرجاء. لئلاّ يفضيَ في الأوَّل إلى المكر؛ وفي الثاني إلى القنوط؛ وكلٌّ منهما مذمومٌ. والمقصود من الرجاء أنّ من وقع منه تقصيرٌ فليحسن ظنَّه بالله، ويرجو أن يمحو عنه ذنبَهُ؛ وكذا من وقع منه طاعةٌ يرجو قبولها. وأمّا من انهمك على المعصية راجيًا عدم المؤاخذة، بغير ندم، ولا إقلاع، فهذا في غرور. وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: «من علامة السعادة أن تطيع وتَخاف أن لاَ تُقبل؛ ومن علامةً الشقاء أن تعصيَ وترجو أن تنجو». ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (دط)، بيت الأفكار الدَّوليَّة: المملكة العربيَّة السعوديَّة، (٣/٢٨٤٠).

(٣) البخاري: الأذان، باب فضل السجود، ح٨٠٦، ص١٧٢.

المؤمنين، وتيسير الحساب، والتجاوز عن المذنبين، ومكافأة محسني الظنِّ به سبحانه بما لا يحتسبون، وما أعدَّه للصالحين في الجنَّة من نعيم؛ بما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ وعلى خلود في نعيمٍ مقيمٍ؛ إلى آخر ذلك من الرحمات التي لا يحيط بها إلاَّ الرحمن الرحيم.

المطلب الثاني

بيان اضطراب التبرير بالرحمة في كامل محطّات التدبير الخلاصي النّصراني

سوف نحاول ههنا أن ننظر في انكسار الربط النَّصراني شبه المنطقي بين محطَّات التدبير الخلاصي؛ لنبيِّن كيف أنَّه إن يصلح في جزئيَّةٍ لا يصلح في أخرى؛ أو لا يستقيم مع غيره، أو يكون مؤثِّرًا في فهم بقيّة صفات الرب، بحيث يحدُّ منها، أو يلغيها، ونحوها من الأمور المستشكلات أو الممتنعات؛ فلنشرع في المقصود كالآتي:

أ. الرحمة والخطيئة:

اللّه الرحمن الرحيم لم يؤاخذ آدم وزوجَه بمعصيتهما؛ وذلك لأنَّهما لم يكونا مصرَّين عليها، لم يكونا مبارزين ربَّهما بالعداء، وإنَّما لحقهما النِّسيان لما نُبِّها عليه قبلًا؛ وكيف لا يرحمهما وهو العزيز الحكيم الذي قد قدّر أن يخلق الإنسان خطَّاءً، قابلًا أن يصدر منه الذنب والعصيان، تبعًا لخلقه مختارًا للخير أو الشر؛ قد سبق علمُه تعالى بذلك ولم يفجؤه ذلك -عياذًا باللّه-.

ورحمة اللّه تعالى بآدم وزوجه قد أدركتهما؛ وأراد ربُّهما أن يعرفا عدوَّهما عمليًّا، وأن يذوقا طعم المعصية ويعرفا شؤمها؛ ثمّ علَّمه ربُّه

الرحمة المتنزِّلة بعد المعصية بالتوبة، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]. وختام الرحمة رحمةٌ بقبول التوبة.

وإذا كان آدمُ كما يقول القرآن: ﴿فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٥] أي إنّ طبيعته لا تثبُتُ في التَّصميم على الأمر، مع يقظةٍ، وعدم غفلة، فماذا نسي آدمُ؟ هل نسي النَّهي الإلهي، أم الحذر من كيد إبليس؟ أم الصفات والملامح المميِّزة لتلك الشجرة؟ ومهما كان الأمر، فإنَّ الأكل لا يدلُّ أبدًا على التحدِّي الواعي للأمر الإلهي(١).

هنا بداية الخليقة بالرحمة؛ أمَّا بداية الخليقة لدى النصارى فمشاهدها مأساويَّة حيثُ: أخطأ آدم بسبب زوجه، فلم يغفر له ربُّه ولا لزوجه؛ بل دخل ما لم يكن يعلمه الربُّ من المقادير، بانكسار العلاقة التي قدَّرها خاصَّة وقريبةً؛ وأشنعُ منها عجز الرب عن رحمةِ من لم يرده قدرًا أن يعصيه؛ واستمرَّت مسيرة الخليقة دهرًا والربُّ يدبِّر: كيف يعيد العلاقة بينه وبين الإنسان الذي خلقه على صورته كما أرادها؟

كما إنَّ تصويرَهم امتداد العقوبة من آدم وزوجه إلى ذرِّيَّتهما وقع منهم مجرَّدًا من رحمة الرب بخلقه؛ فيأثم النسل بما قدَّمه أبوهم؛ مع تصويرهم ذلك عدلًا، وهو واضحٌ بطلانه. أمَّا من رحمة الله تعالى كما جاء جمال توصيفها في الإسلام، فقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ [النجم: ٣٨-٤١]». وبطبيعة الحال من دعى النَّاس إلى المعصيةٍ أو سنَّها فإنَّه سيكون عمل المقتدين بدعوته أو فعله، يكونون من كسبه وسعيه الذي سيُرَاه يوم القيامة، وليس من باب تحميله وزرًا من دون ذنبٍ.

(١) محمّد عبدالهادي أبو ريدة: قاموس القرآن الكريم؛ مضمون القرآن الكريم في قضايا الإيمان والنبوّة والأخلاق والكون، (ط٢)، مؤسَّسة الكويت للتقدُّم العلمي: الكويت، ١٩٩٧م، ص١٢٥.

ب. الرحمة والعدل والحكمة:

تتعارض في مفاهيم التدبير الخلاصي بشكل شنيع صفة الرحمة مع صفة العدل مع صفة الحكمة؛ فطريقة النَّصارى فِي تصوير سعة الرحمة الإلهية جعلتهم – من حيث لا يشعرون- يقعون في الانتقاص من صفتي العدل والحكمة الربَّانيتين. وهذه حقيقةٌ نقف عليها عند متابعة التحريف الذي حدث عند أهل الكتاب؛ فمن مزَّق النسيج الربَّاني للكتاب لن يستطيع بعد ذلك ترقيعَه بأباطيل من خارجه.

وهنا ذنبٌ عظيم في قولهم عن خطيئة آدم عليه السلام؛ فيحلُّ به سخطٌ ونقمةٌ وغضبٌ تتحمَّله الذريَّة، ويصيبها بلا ذنبٍ منها؛ ويغيثهم ربُّهم بطريق خلاص من طريق الأنبياء والشريعة وهي غير مجديةٍ؛ أليس الربُّ هكذا -عياذاً بالله- ليس بالعزيز الحكيم؟ ثمَّ يرسل ابنه -افتراءً عليه سبحانه- من دون أن يكون خاطئًا فيتحمَّل آلامًا وذنوبًا ليس مقترفَها على أن يكون ذلك في صورة العقاب، والموتِ كلعنة فوق الصليب؛ فأيُّ عدلٍ في عقاب البريء؟ ثمَّ هل يتألَّم الإله – الأقنوم الابن-؟ هل يعجز عن التحمُّل؟ هل يموت الإله؟ إلى آخر ما يمكن أن يتكوَّن في أذهاننا من تساؤلاتٍ ليس لها جوابٌ إلاَّ سقوط هذا التصوير الدرامي للتدبير الخلاصي.

ج. الرحمة والموت:

ولنا أن نتساءل ههنا: ما الذي جعل النَّصارى يتصايحون أنَّ الموت دخل بالأكل من الشجرة؛ ولم يجد الربُّ كيف يتغلَّب الإنسان على الموت إلاَّ بابنه الوحيد؟ كيف وفي الجنَّة كما مرّ بنا، شجرةُ الحياة التي من أكل منها يحيا أبدًا؟ لم تصوير عجز الربِّ هكذا؟ ولم يصوِّرون قسوته هكذا؟ بل لم يصوِّرونه في صفات البشر كالذي خشي على ملكه أن يأكل الإنسان من شجرة الحياة فيصير مثله خالدا؟

والشنيع في هذا قولهم إن الله لم يصنع الموت، فلقد خلق الإنسان لعدم الفساد والموت... هذا الموت الذي لم يكن قد أوجده في البدء(١).

د. الرحمة وطريق الخلاص:

من رحمة الله تعالى في الإسلام –من أوَّل الأنبياء إلى خاتمهم– أنَّه يوضِّح للخلق سبيل نجاتهم وخلاصهم من الدنيا إلى الآخرة؛ طريقًا سبق علمه بها، واقتضتها حكمته وعدله، وقضاها قبل خلق آدم ومن بعدَه. قضى أن لا يراه البشر في الحياة الدنيا بأبصارهم، وركز في فِطَرِهم أن يروه ببصائرهم، في أنفسهم وفي الآفاق؛ وبالغ –رحمةً بهم– في الإعذار، فأرسل «﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]؛ وأنزل الله تعالى على من شاء منهم ما شاء من كتبٍ فيها رحمةٌ ونورٌ وهداية وحكمةٌ.

بعد رحمة الله تعالى بتذليل أدوات الهداية ووسائلها؛ ذلَّل لخلقه سُبُلَهَا؛ فعلى الإنسان الذي يريد الخلاص أن يرحمَ نفسه فيختار لها سبيل الاتِّباع والعبادة والصلاح والخيريَّة؛ وألاَّ يوبقها في ضيق الدنيا وخزي الآخرة.

ههنا الرحمة واضحة المعالم، قويَّة الدلالات؛ ولكن هناك في النصرانية تختلط المعالم وتختلُّ مرتكزاتها؛ فالربُّ عندهم يجرِّب طريق مخاطبة البشر من طريق الأنبياء والوحي إليهم مدَّةً طويلةً جدًّا من عمر البشريَّة التي تئنُّ حسب تصورهم تحت عذاب الخطيئة والموت، منتظرةً رحمة ربِّها. ولكنَّ تلك الطريق غير مجديةٍ، ولم تثمر؛ فجاءت الطريق الجديدة، من طريق ابن الله الوحيد –بقولهم– لتكون طريق الخلاص التي مهَّد لها الربُّ حِقَبًا زمانيَّة متطاولة جدًّا.

(١) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٧٨٢.

فجعلوا الربَّ -بحسب وصفهم- غيرَ رحيم بعباده؛ وغير مريدٍ لهدايتهم منذ البدء إلى طريق الخلاص الحقيقيَّة.

هـ. الرحمة والكفارة والفدية:

اللّٰه تعالى تَّواب غفورٌ رحيمٌ؛ لم يدع الإنسان الذي طبعه الخطأ والنسيان، والظلم والطغيان، لم يدعه فريسةً للنفس والهوى والشيطان؛ بل دعاه أن يستغفره فيغفر له؛ أن يدعوه فيستجيب له، أن يستعين به فيعينه، أن يتصبَّر فيصبِّره... إلخ. وقد شرع له من الأعمال والعبادات والطاعات، ما من شأنه أن يطهِّره من أدران الذنوب والمعاصي. ولا وجود للوسائط إلا من حيث البلاغ كالرسل من الملائكة والأنبياء، وقد جعل اللّٰه تعالى كفّاراتٍ وفدياتٍ فيما شرعه للنَّاس؛ بحيث يستنقذهم من الذنوب والخطايا.

لكن ما ينبغي ملاحظته ههنا أنَّ الأمر في الإسلام لا يجعل فديةً وكفَّارةً مبطليْنِ لمبدأ التكليف، أو متعارضين معه؛ بمعنى أنّ الإسلام أغلق الباب على الأماني الباطلة، ولكنَّه شرَّع أبواب الرحمة في وجوه الخاطئين، والمذنبين؛ لتكون النتيجة تقليل السيِّئات، وزيادة الحسنات ومضاعفتها أضعافًا كثيرةً.

فجعل اللّٰه تعالى كفَّارات لذنوبٍ بعينها فتكفُرُها وتغطِّيها، كالظِّهار، وكالحنث في اليمين؛ وجعل الفدية كشيءٍ حسن يفعله المرء في مقابل صنيعه السيِّئ كالصيد والمرء محرم. إنَّ الكفَّارةً والفدية في مفهوم الشرع، ليست تعليق التكليف على آخر، وإنّما هي فتح باب التوبة والنجاة، ورحمة الخلق من الذنوب والخطايا التي ولابدَّ يقعون فيها.

وإنّما النّصارى فتحوا على النَّاس باب الأماني، أن يأتيهم من يُسقط عنهم التكاليف ويعينهم، بحجَّة ضعفهم وقلَّة حيلتهم؛ وهو أمرٌ تميل إليه النَّفس، وقد وقع في هذه الأمَّة من رأى سقوط التكاليف بحجّة أنّه وصل،

وما ذاك إلاَّ لكون الإنسان يحبُّ الركون إلى السكون والدَّعَة، وتحصيل الثمرات من دون أدنى الجهد. فيُقال لهم: لِمَ لم يُبطل الربُّ بزعمكم الأعمال والتكاليف ليرحمكم؟ أو لِمَ لم يخلِّصْكُم من دون فديةٍ؟ ما دمتم تبطلون مبدأ التكليف من الأساس.

و. الرحمة وحصول الخلاص:

الرحمة كما عَلَّمنا ربُّنا تكون في الدنيا وفي الآخرة؛ قال الله تعالى عن عذاب اليوم العظيم: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الأنعام:١٦].

وإنَّ محصِّلة الرحمة بالخلاص والنجاة والفوز، إنَّما تكون عندما يُختم للإنسان بذلك عند خروج الروح -والكتاب طبعًا قد سبق بذلك- وإدراكُ ذلك والتمتُّع بثمراته يبتدئ في القبر أوَّل منازل الآخرة، ويدرك غايته في دار السلام. والذي يسبق ذلك في الحياة الدنيا، هو تمتُّع الصالح بثمرات الصلاح بشرح الصدر، والبركة في النفس والرزق، والقبول في الأرض، ونحوها من الأمارات. على هذا الأمر من آدم عليه السلام، إلى آخر إنسيٍّ ستقبض روحه.

لكن في المقابل نجد النصارى يحاولون تصوير حصول ما لم يحصل من الثمرات، وتغيُّرها بمجيء ابن الله الوحيد -بقولهم- عمَّا قبل مجيئه؛ فيصوِّرون وقوع رحَمَاتٍ بذلك المجيء لا دليل عليها بتاتًا وإطلاقًا.

والعجيب أنَّهم حين يحاولون أن يصوِّروا سعة رحمة الله لا يمكنهم عند التحقيق أن يجاوزوا ما جاء في الدِّين الخاتم وكتابِه الشاهد عليهم؛ فلنتأمل قولهم هذا -على سبيل المثال-: فأولئك الذين سيخضعون لحكم الله ومشيئته، سيدخلون ملكوت المسيح، وينالون المغفرة عن خطاياهم، كما سينالون الحياة الأبديَّة. هذا الشيء سيحدث لكلِّ النَّاس في كلِّ

العصور؛ فمن يؤمن بالمسيح سيدخل ملكوته، وينال بركاته(١). ثمَّ هم يبرِّرون ذات التبرير أنَّ المطيع الصالح ينجو، وأمَّا غير المؤمن فيُدان؛ فكلٌّ على حسب ما اكتسب وسعى له؛ فلننظر إلى التبرير الآتي: فإله الرحمة هو أيضًا إله الدينونة الذي سيضع للتَّاريخ نهايةً. أمّا دعوته إلى الخلاص فلا يمكن إهمالها؛ فإمّا قبولها، وإمَّا رفضها(٢).

وكلُّ دعوةٍ غير هذه فهي بيِّنة التهافت؛ وخاصَّة في بعض الخطابات التنصيريَّة التي تحاول إسقاط التكاليف عن النَّاس، والاكتفاء بمجرَّد الاعتراف بالمسيح ربًّا ومخلِّصًا؛ ويُقال لهم ههنا: أن تنسب لله تعالى شيئًا، أو تصفه بما ليس من صفاته، تكون حينها مفتريًا عظيم الافتراء؛ لأنَّك حينها ستحدث خللًا في علمك بالله في ناحية ما. لو قلنا - مثلًا- اللهُ برحمته يُدخل جميع الناس مؤمنين وكفارًا الجنَّة، لكان ذلك افتراءً منَّا على الله الذي حرَّم الظلم على نفسه. إنّ نظرتنا في الإسلام -بفضل نور الوحي- متكاملةٌ إلى صفات الله تعالى التي علّمنا إياها، وفق ما أرادنا أن نفهمه من تجلِّياتها، أمّا في النصرانيَّة -بحسب تتبعي غير المتعمِّق- فيكثر الإغراق في جانب على حساب آخر حتَّى يختلَّ البناء المعرفيُّ لها.

هذا ما نلمسه منهم أيضًا حين يكون الربُّ رحيمًا عندهم وفي نفس الأمر غير قادرٍ على تحقيق الرحمة بمن أراد رحمتهم من البشرية؛ ويزداد الأمر شناعةً حين يكون تبريرهم عدم تلك القدرة -وإن لم يسمُّوها عجزًا- هو تصويرٌ موهومٌ لحاجزِ العدل، فالربُّ لأنَّه متَّصف بالعدل لا بدَّ وأن يكون جزاء الخطيئة الموت، وهو ما تنصُّ عليه الشريعة؛ وكأنَّما الشريعة حاكمة على الربِّ لا هو المشرِّع لها؛ فمن يموت؟ يموت ابن الإله

(١) دون فليمنج: التفسير المعاصر للكتاب المقدَّس، ترجمة لجنة التعليم بالكنيسة الإنجيليَّة بقصر الدوبارة، (ط١)، الكنيسة الإنجيليَّة بقصر الدوبارة: القاهرة- مصر، ٢٠٠٤م، ص٥٥٨.

(٢) غرانت. ر. أوزبورن: تفسير الكتاب المقدّس في أبعاده المتعدِّدة، ترجمة نزيه خاطر، (ط١)، دار المنهل: بيروت- لبنان، ٢٠١٤م، ص٣٤٨.

-عياذًا بالله- في تصويرٍ ملحميٍّ بطوليٍّ، مفعم بالحب والرَّحمة، وتحمُّل الآلام. ليست المشكلة فيِ هذا البناء الدراميً المؤثِّر؛ المشكلة كلُّها أنَّهم زعموا لله ولدًا، وأماتوه.

حقيقةً إنَّ النَّصارى حين ثلَّثوا دخلوا نفقًا لا مخرج منه إلاَّ أن يوحِّدوا؛ وكلُّ مفهوم ينبني على التثليث سيزيد من زاوية انحرافهم؛ ويجعلهم متعمِّقين فًي أحلام وأوهام وظنونٍ كاذبةٍ؛ وحالات شعوريَّة من المحبَّة ومن الرحمات الموهومة؛ فيًستمرُّوا -ولاً بدَّ- في نهجهم: أنَّهم «ضلُّوا على غير علمٍ».

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث المختصر؛ يجمل بنا أن نلخِّص أهمَّ محطَّاته ونتائجه؛ وذلك في نقاطٍ كالآتي:

- النتيجة الكبرى والرئيسة في البحث هي أنّه لا يمكن لأيِّ دينٍ ممَّا يعتنقه البشر أن يُظهر رحمة ربِّ العالمين بخلقه كما هي واضحةٌ في نصوص الإسلام -قرآنًا وسنَّةً- في مقابل طرفين: طرفٌ يقوم بتصوير الإله بلا صفة الرَّحمة قاسيًا؛ والطرف الآخر هو الطرف الغالي: الذي يقوم بالعزف على وتر الرَّحمة، فيَفتري رحماتٍ -وما هي أصلًا رحماتٌ حقًّا- ما أنزل الله بها من سلطانٍ، وينسى من يسلك تلك السبيل أن - مفاهيم التدبير الخلاصي في النَّصرانيَّة هيكلُها وعمودُ أمرها قائمٌ على فكرة التثليث، وتحديدًا على فكرة بنوّة المسيح عليه السلام -بقولهم- وهو ما جعلهم ينتحلون خطَّةً إلهيّة منذ القدم لخلاص النَّاس؛ ثمَّ يصفون مراحلها، وكأنَّ الربَّ يجرِّب كبشر -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- فينجح أحيانًا، ويخفق أحيانًا، ويضحِّي بابنه رحمةً بالإنسان.

- التدبير الخلاصي النَّصراني وإن كان في قليلٍ من تصويراته

مقبولًا، غير أنَّ مشكلته هي في تحويره ليتوافق مع فكرة «بنوَّة المسيح» وما يتعلَّق بأحداث الصلب وفكرة الفداء؛ فيعتسفون في تبريراتٍ لا تستقيم، وفي تهويل بعض الأمور التي نوافقهم في أصلها، كضعف الإنسان، وقلَّة حيلته، وكعداوة الشيطان لآدمَ وذرِّيَّته، ولكنَّنا نخالفهم - بالإضافة إلى ما سبق من التهويل- في ربط بعضها ببعض.

- إنَّ التدبير الخلاصي في النَّصرانيَّة وإن جعل أحد مرتكزاته «الرحمة» إلاَّ أنَّ التبرير بها لا يستقيم في كلِّ محطَّاته؛ فقد لاحظنا في أحيانٍ عدم تحقق الرحمة المزعومة؛ وفي أحيانٍ أخرى تعارضَهَا مع سنَّة اللّه تعالى في تكليف العباد؛ وفي أحايين أخرى تعارض صفة الرحمة مع بقيَّة الصفات كالعدل والحكمة والعلم ونحوها.
- الرحمة في الإسلام مفاهيمها منضبطةٌ، متوافقةٌ مع الفطرة؛ يدركها النَّاس بيسرٍ، ويتذوَّق المؤمنون معانيها بحلاوة الإيمان؛ فقد تعلَّموا من الوحي الإلهي أن يقفوا عند ما حدَّ لهم ربُّهم؛ وهو الذي أنزل كلَّ شيءٍ منزله؛ وأمرهم ألاَّ يغلوا وألا يجفوا؛ وعلى ذلك ينبغي المسير والعمل.
- اللّه سبحانه وتعالى بيّن منذ البدء لآدم - ومن بعده ذرِّيّته - الطريقة التي يمكن من خلالها للنَّاس أن يخلُصوا، وأن ينجوا من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة؛ باتِّباع هدايته ورحماته التي ينزلها تعالى على أنبيائه، وفي كتبه؛ وأرشدهم إلى أنَّ الخلاص من الذنوب إنَّما بعدم مقارفتها، وبالتوبة منها إذا قارفها الإنسان - وهو الخطَّاءُ بأصل خِلقته - مع الندم عليها، والعزم على عدم العودة إليها، وإصلاح ما أفسده المرء بمعصيته تلك. وقد أوسع

اللّه تعالى برحمته باب التوبة؛ وأطال في أجل قبولها. كما قضى اللّه تعالى أنّ الموتَ حقٌّ، وكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت مهما عظُم قدرها فلا خلاص في الدنيا من الموت؛ وإنّما حقيقة الموت أنَّه انتقال من الفانية إلى الباقية، واستيقاظٌ بعد نومٍ وغفوةٍ. وأمّا الآلامُ فهي من الابتلاءات - خيرًا وشرًّا - تنتهي عن الصالحين بدخول دار السلام؛ ويخلد فيها من رفضوا أن تشملهم رحمة ربِّ العالمين. لا أحلامَ واهمة؛ لا أمانيَ كاذبة؛ لا وسائطَ صادَّة أو شافعة بغير حقٍّ؛ لا حاملَ للأوزار إلا مقترفها؛ لا رحمةَ إلاّ رحمةُ اللّه ربِّ العالمين، وهو العزيز الحكيم.

والحمد للّه الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات.

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

قائمة المصادر والمراجع

١. القرآن العظيم، برواية حفصٍ عن عاصم.
٢. الكتاب المقدَّس، نسخة فان ديك (Arabic New Van Dyck Bible)، الإصدار الثالث، (ط٤): القاهرة- مصر، ٢٠٠٦م.
٣. محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري: الجامع الصحيح، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، الَّدار الذَّهبيَّة: القاهرة- مصر.
٤. مسلم بن الحجَّاج النَّيسابوري: الصَّحيح، تحقيق خليل مأمون شيحا (ط١)، دار المعرفة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٥م.
٥. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: المقاييس في اللغة؛ ت شهاب الدّين أبو عمرو؛ (دط)، دار الفكر: بيروت- لبنان، (دت).
٦. إسماعيل بن حمَّاد الجوهري: الصحاح، تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة، تحقيق أحمد عبدالغفور عطَّار (ط٣)، دار العلم للملايين: بيروت- لبنان.
٧. مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ت خليل مأمون شيحا؛ (ط٢)، دار المعرفة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٧م.
٨. مجد الدِّين أبو السعادات المبارك بن محمَّد الجزري ابن الأثير: النِّهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق علي بن حسن بن علي بن عبدالحميد الحلبي الأثري، (ط١)، دار ابن الجوزي: الرياض- المملكة العربيَّة السعوديَّة، ١٤٢١هـ.
٩. أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ت محمَّد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة: القاهرة- جمهورية مصر العربية.

١٠. أبو البقاء أيُّوب بن موسى الحسيني الكفوي: الكلِّيات، تحقيق عدنان درويش، محمَّد المصري، (ط٢)، مؤسّسة الرسالة: بيروت- لبنان، ١٩٩٨م.
١١. بدر الدِّين بن جماعة: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، (ط١)، تحقيق عبدالجواد خلف، دار الوفاء: المنصورة- مصر، ١٩٩٠م.
١٢. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدِّمشقي: تفسير القرآن العظيم، (ط١)، دار ابن حزم: بيروت- لبنان، ٢٠٠٠م.
١٣. مجد الدِّين أبو السعادات المبارك بن محمَّد الجزري ابن الأثير: النِّهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق علي بن حسن بن علي بن عبدالحميد الحلبي الأثري، (ط١)، دار ابن الجوزي: الرياض- المملكة العربيَّة السعوديَّة، ١٤٢١هـ.
١٤. أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي: كتاب الزينة في الكلمات الإسلاميّة العربيَّة، تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني اليعبري الحرازي، (ط١)، مركز الدراسات والبحوث اليمني: صنعاء- اليمن، ١٩٩٤م.
١٥. الحسين بن محمَّد الدامغاني: قاموس القرآن، أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق عبدالعزيز سيّد الأهل، (ط٣)، دار العلم للملايين: بيروت- لبنان، ١٩٨٠م.
١٦. محمّد عبدالهادي أبو ريدة: قاموس القرآن الكريم؛ مضمون القرآن الكريم في قضايا الإيمان والنبوّة والأخلاق والكون، (ط٢)، مؤسَّسة الكويت للتقدُّم العلمي: الكويت، ١٩٩٧م.
١٧. الخوري بولس الفغالي: المحيط الجامع في الكتاب المقدّس والشرق القديم، (ط٢)، المكتبة البولسية: بيروت- لبنان، ٢٠٠٩م.
١٨. صبحي حموي اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي، أعاد النظر فيه من النَّاحية المسكونيَّة الأب جان كوربون، (ط١)، دار المشرق: بيروت- لبنان، ١٩٩٤م.

١٩. مظهر الملوحي وآخرون: قراءة صوفيَّة لإنجيل يوحنًّا، (ط١)، دار الجيل: بيروت- لبنان، ٢٠٠٤م.
٢٠. جوناثان هيل: تاريخ الفكر المسيحي، ترجمة سليم اسكندر، مايكل رأفت، (ط١)، مكتبة دار الكلمة: القاهرة- مصر، ٢٠١٢م.
٢١. لجنة من المعرِّبين بإشراف المطران أنطونيوس نجيب: معجم اللاَّهوت الكتابي (العنوان الأصلي: Vocabulaire de Theologie Biblique)، ط٦، دار المشرق: بيروت- لبنان، ٢٠٠٨م.
٢٢. نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاَّهوتيِّين؛ هيئة التَّحرير: بطرس عبدالملك، جون ألكسندر طمسن، إبراهيم مطر: قاموس الكتاب المقدّس، (ط١٣)، دار مكتبة العائلة: القاهرة مصر، مطبعة الحرِّيَّة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٠م.
٢٣. جون ماكسويل: الكتاب المقدّس: دراسات في القيادة، الترجمة العربيَّة المشتركة، (ط١)، جمعية الكتاب المقدّس:بيروت- لبنان، ٢٠٠٧م.
٢٤. بروس بارتون ، رونالد بيرز، وآخرون: التّفسير التّطبيقي للكتاب المقدّس، ترجمة شركة ماستر ميديا (دط)، القاهرة- مصر.
٢٥. فالتر كاسبر: اللاَّهوت والكنيسة، ترجمة يوحنا منصور، (ط١)، المكتبة البولسيَّة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٦م.
٢٦. وليم وهبة بباوي: دائرة المعارف الكتابية ط٣، دار الثقافة المسيحية: القاهرة- مصر، ٢٠٠١م.
٢٧. دون فليمنج: التفسير المعاصر للكتاب المقدَّس، ترجمة لجنة التعليم بالكنيسة الإنجيليَّة بقصر الدوبارة، (ط١)، الكنيسة الإنجيليَّة بقصر الدوبارة: القاهرة- مصر، ٢٠٠٤م.
٢٨. غرانت. ر. أوزبورن: تفسير الكتاب المقدّس في أبعاده المتعدِّدة، ترجمة نزيه خاطر، (ط١)، دار المنهل: بيروت- لبنان، ٢٠١٤م.

٢٩. L ‹abbé H. Lesetre; La clef des Evangiles. Lethielleux .libraires - editeur Paris

٣٠. Initiation Biblique; publiée sous la direction de A.Robert -et- A. Tricot, imprimeurs du Saint siege et la Sacrée congregation des rites: Paris, Tournai, Rome

٣١. le Dictionnaire pratique des connaissances Religieuses, Publié sous la direction de J.BRICOT Librairie Letouzey et Ane, .Paris, France 1925